

عوض عثمان عوض
مكتبة
الحبر الإلكتروني
@bookkn
d110d
إيقاع
العودة
رواية
الفارابي



عوض عثمان عوض
مكتبة
الحبر الإلكتروني
@bookkn
إيقاع
العودة
رواية
الفارابي

إيقاع العودة

رواية

تأليف :

عوض عثمان عوض

دار الفارابي
الكتاب: إيقاع العودة
المؤلف: عوض عثمان عوض
لوحة الغلاف: إسلام زين العابدين
الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) - فاكس: 307775(01)
ص.ب: 11/3181 - الرمز البريدي: 2130 1107
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com
الطبعة الأولى: آب 2013
ISBN: 978--614-432-031-0

الأهداء

إلى: رفيقة الدرب ومشوار الحياة

الخنساء عمر العماس..

وإلى الأبناء الأعزاء:

نادية، عمر، نادين، نارمين.

يا امرأة تغزِل شعرها في الشمس
من أجل الحزن والسفر عبر الأنهار
من أجل الحبر الممزوج بالدماء.
الشاعرة الراحلة سنية صالح

طقوس الحضور

ظلام كثيف يطوق خاصِرة هذا المساء المغلف بالسواد الذي يلف كل شيء؛ المدينة لا تزال غارقة في صمتها الأزلي. قد انكمشت حول نفسها وبدت أشبه بسيمبيريا المدينة الإغريقية الأسطورية التي لم تر النور، وأضحت كأنها في عزلة وانقطاع تام عن العالم.

بصمة سكون عميقة مختومة بحبر الصمت على جوف الليل، قطرات مطر تتدفق على مهل في عرض النهر، هل لا أزال أحلم وأحلم...

سرب حمام أبيض يحلّق في الأفق اللازوردي، ويراقب تفاصيل ذلك المشهد. جسدي خفيف يعلو ويهبط كالريشة في كبد السماء، يتصبب ماء من جسدي كأني خارجة تواً من عمق النهر، أتحسس ببطء قسمات وجهي بأطراف أصابعي حتى أطمئن أنني خرجت من ذلك الحلم.

عيناي تائهتان في الفراغ الليلي، تحملقان في الظلام الحالك، باحثتين عن بقعة ضوء وسط تلك العتمة. الليل لا يزال سيد الموقف يمارس طقوس سكونه الأزلية بشهوة عالية ومزاج رائق، وترانيم الصمت في الغرفة تعزف ألحان الخرس الأبدي على مسرح الفراغ. كان الهدوء يعم المكان لدرجة يمكن أن أسمع دقات قلبي بصورة واضحة.. تكاد الساعة تمضي بانتظام وتصدر صوتاً رتيباً ملّت الأذن سماعه المتكرر.. بدأت الصور والمشاهد تتضح شيئاً فشيئاً، ورحت أتمعن في سقف الغرفة الغارق في متاهات البياض..

تناهى إلى سمعي صوت مقطوعة سوناتا ضوء القمر لبيتهوفن منبعثة عبر زوايا الغرفة، فعلمت أن الساعة الخامسة صباحاً، موعد استيقاظي المعتاد من النوم.. صوت ريح خفيفة تسرب عبرالنافذة المطلة على الحديقة المجاورة.. تفاصيل كثيرة وذكريات تنساب حولي وتحوم في الفراغ الشاسع بلا تردد، تتداخل المشاهد والأفكار في مخيلتي، والهواجس تتقافز حول ذهني.. وخز الألم يذكرني بوجوده داخل جسدي في كل ثانية.. حاولت بجهد أن ألملم بقايا جسدي المنهك من التعب، فشعرت بصداع حاد، ورغبت في تناول فنجان قهوة.

كانت المدينة قد خرجت تواً من فصل الشتاء البارد، وودعت حالة البياض التي عمت كل جزء فيها بعد انتهاء تلك الفترة المحملة بالثلوج، لم يتبق في ذاكرة الناس سوى مشاهد متفرقة للأطفال الصغار، وهم يمرحون ويتراشقون بكرات الثلج منذ الصباح حتى المساء، يصنعون من الثلوج تماثيل وأشكالاً مختلفة.. لا شيء يوقفهم عن اللعب سوى التعب، سرحت مع تقلب الفصول والطبيعة الساحرة التي كنت أتأملها كأني أراها للمرة الأولى.

تنساب موسيقى مقطوعة الدانوب الأزرق ليوهان شتراوس.. موسيقى عذبة تتسرب داخل الروح، وتمنح النفس إحساساً مريحاً وبهيجاً يعطر المكان بكل جمال وألق.. يختلط المشهد برائحة الألوان وطعم الذكريات وسيرة الحنين الذي لا ينضب حتى تكاد الروح أن تصل إلى ذروة النشوة والسعادة القصوى.. عند أول تباشير الفجر لمحت اللوحة المعلقة على الجدار.. ضوء ينسكب على وجه ذلك الأسمر ذي القامة العالية وهو يحدق بعينيه إلى العوالم البعيدة كأنه يبحث عن سر لم يجد له جواباً على كوكب الأرض.

بالقرب من تلك اللوحة مشهد آخر لفتاة جالسة تحت شجرة نخيل عالية، وهي مستغرقة في العزف..ها أنذا جالسة وحيدة شاردة الذهن أتسكع بين خلايا روحي بذاكرة مرهقة حتى التعب، أتأمل عزلتي بحكمة ديك وأقاوم وجعي بصبر حصان.

كلما يشتد وخز الألم على المرء يصبح الجسد عدواً للإنسان.. وتصبح الحياة نفسها عبئاً ثقيلاً لا يطاق.. لم يعد ذهني يحتوي الكثير من الأسئلة.. أصبحت في كثير من الأحيان أستيقظ دون أن أنهض وأغفو دون أن أنام، تعتريني حالة شبه متكررة من الكسل.. تعبي أثقل من جبل وخيالي لا يزال متخماً بالعديد من الأفكار والصور المتفرقة.

أيتها الجدران هل ستذكرينني بين أزقة صمتك السرمدي.. الذي تتداخل فيه الكلمات بالألوان والمشاهد الضاجة بالأصوات الداخلية؟

قلت لنفسي لو أنّ يدي ساعدتني قليلاً، لرسمت هذا الخواء الفسيح في لوحة بيضاء وأسميتها «أبجدية الفراغ».. عيناي المرهقتان تنظران بشغف وتمعن شديدين إلى السقف الأبيض والجدران الصامتة.. كم من القصص والحكايات الطويلة حفظتها هذه الجدران وخبأتها في جوف ذاكرتها المعدنية.. دفق وحشود من التعابير فرح، حزن، صخب، آهات، جنون، وجع، أنين، صراخ، دموع، شوق، صمت وصبر بلا حدود.. كم أحسدك على سكونك أيتها الجدران الصامتة! فلا شيء يعنيك البتة من هذا الوجود الملتبس والواقع المرهق.

وقفت عند شرفتي المطلة على الأفق الفسيح أستنشق، بعمق، رائحة الأشجار والأزهار المغسولة بزخات المطر.. ضوء الفجر الناصِع ينبلج وينساب عبر النافذة، أمسكت بالورقة والقلم وكتبت بقية نص مؤجل لبعض الأفكار التي تسللت إلى ذهني في تلك اللحظة..

كنت أستمع بعمق إلى همس الريح الحزينة، وهسيس الأشجار الحالمة، وأزيز الطائرات المحلقة في الفضاء الواسع، ثم شرعت رويداً رويداً في الإبحار:

أيتها السماء الصافية

أرسلي ضوء قمرك الناعم

لأغسل ملامح وجهي من التعب

أيتها الريح المسكونة بالسفر

اعزفي على أوتارك المقدسة

وأطربي آذان الأرض الخامدة

بأجمل ألحانك السرمدية

أيها النيل الخالد

أيتها البلاد البعيدة

إجمعي بقايا روحي

واحتوي جسدي النحيل

بين ذرات ترابك الدافئ.

****

ترقرقت عيناي بالدموع حتى بللت الأوراق بيدي بعد أن راحت تنساب بغزارة.. وأنا أقرأ هذه الأسطر للمرة الأولى، تنهمر الذكريات، وتتدفق مثل الفيضان الجارف..

أنبش في مخيلتي بعضاً من التفاصيل البعيدة، فتأتي الصور تباعاً طافحة بالذكريات والحنين والأسى.. هل تذكرين عندما كنتِ صغيرة، كنا نذهب معاً للجلوس قرب ضفة النهر.. كان يروقك ذلك المشهد بشدة.

كُنا نرسم معاً بالرمل أشكالاً مختلفة على الأرض ثم نهدمها ونعيد رسمها من جديد، نغسل وجوهنا بعد ذلك بمياة النهرالطاهرة والعذبة، فنشعر وكأننا كائنات نورانية لا تنتمي إلى هذا العالم من قريب أو من بعيد.

في المساء كنا نحدق إلى السماء ونتأمل النجوم الساطعة، ونقوم بمحاولات فاشلة لحصر عدد النجوم دون أن نصل إلى نتيجة.. يبهرنا القمر بضوئه الفضي الناعم الذي يملأ صفحات النهر.. أي سر تحمله في جوفك أيها النهر العظيم.. لانزال نتعلم منك دروب الصمت وأسرار الغوص داخل أعماقك السحيقة.. كان يبهرك منظر الغروب عند ضفاف النهر.

كنت أجلس كل يوم قرب رأسك أمسد خصل شعرك الطويلة، أسرد لك بعضاً من ذكرياتنا المشتركة البعيدة حين كنا نلعب حتى نصل إلى قمة التعب، ونطلق لأنفسنا العنان لفعل ما نشاء من لهو ومرح حتى الانتشاء....

كنا نتسامر في حضرة أشجار النخيل بظلالها المترعة بالتحدي والشموخ، بين النيل والنخيل والليل علاقة أزلية جذورها تمتد إلى آلاف السنين الضوئية.. الليل بهدوئه المدهش يجعلنا نسبح عبر الأزمنة، وننسج من خيالنا الخصب قصصاً وحكايات عادة ما تكون مرتجلة في لحظتها، تأتي من البعيد أصداء أذكار صوفية مصحوبة بنسمات الريح.. تتمايل أوراق الأشجار الخضراء بطرب ورشاقة كأنها غارقة في حالة شوق ووجد صوفي .

سألت نفسي: هل كتب لي يا شقيقتي أن أحضر لحظات قدومك ورحيلك من هذا العالم؟

أذكر عندما ذهبنا إلى النهر الأسبوع الماضي قبل دخولك المستشفى بيوم واحد.. كنت قد طلبتِ مني أن أتركك وحدك مدة نصف ساعة، وكأنك كنت تريدين أن تودعي ذلك النهر العظيم، وكتبت عند ذلك المساء في مفكرتك الزرقاء:

كنت جالسة هذا المساء على ضفاف النيل.. نفذ إلى أعماقي رائحة النهر وهدير الأمواج، غسلت روحي بهوائه النقي، وتوضأت بمياهه العذبة، واتكأت على وجعي.. تذكرت في تلك اللحظات مقولة البوذيين «إن الحياة نهر، وإننا نبحرعلى طوق نحو الهدف النهائي».

على صفحات النهر رأيت وجهي وبدوت كأني شخص آخر قلت لنفسي: «أنا لست أنا»..

في تلك اللحظات نسيت كل شيء حتى الوجع الذي لم يبرح جسدي مدة طويلة من الوقت، تأملت في حال الوطن الحزين المثقل بالجراح والإحباطات المتلاحقة واحداً تِلو الآخر. صوت حزين

ومتقطع لطلمبة المياه يأتي من ناحية الضفة الأخرى للنهر يبدو كأنه في حالة انسجام تام مع حالتي.. تارة يؤرقني، و أخرى أتخيله يواسيني ويشد من أزري.

أيها النهر الذي يسكن الروح والقلب لديّ شوق وحنين جارف يشدانني إليك، سأعلق على جدران الوطن قصائد المنافي البعيدة ولوحات رسمتها يد الخيال، لا أزال أذكر كلمات جدتي حين كانت تقول لي: إنّ النهر هو رمز الحياة وشريانها النابض بالنسبة إلينا وعندما يتوقف عن الجريان تصبح حياتنا عديمة الجدوى.. وقبل أن أودعه للمرة الأخيرة قلت له هامسة:

«أتيت إليك أيها النهر لأودعك، أحمل على عاتقي عبء غياب طويل.. وبقايا روح منهكة، وقصائد تائهة ولوحات مبعثرة في المدن البعيدة».

تأملت ذلك المشهد الساحر الذي لم يفارق ذاكرتي طوال فترة ابتعادي عنه، حدقت إلى السماء الزرقاء.. يعلو صوت العصافير وهي تتسابق بفرحة غامرة في دروب الفراغ.. ما أروعه من مشهد! هكذا كنت أحدث نفسي الهائمة في البعيد..

هل صرت أدمن الوجع الذي يتسرب إلى دواخلي من كثرة حضوره الطاغي، هل كانت شهوة الغياب تغريني بالرحيل نحو دهاليز العالم غير المرئي؟

****

بماذا تحلمين الآن يا صغيرتي؟ هل تشعرين بقربي منك؟ نبرات صوتك العذب تتردد في أذني، الصوت هو بوابة الدخول إلى غياهب الروح، وكما قيل في البدء كانت الكلمة.. لو أن المرض والموت يقبلان فدية لفديتك بروحي المعذبة، كانت روحك شفافة ونقية كحبات ضوء القمر، وضحكتك بريئة كلون الفرح في عيون الأطفال الصغار.

كنتِ تحلقين في البيت كالفراشة الصغيرة التي ألفت الرحيق والألوان، وكان البيت مفعماً بالحب والأمل.. كان وجودك كافياً ليمنحنا بهجة وسعادة لا تضاهيان ولا تعوضان، لأزال حائرة حتى الآن كيف سأخبر والدتي بمرضك هذا؟ أيتهاء السماء امنحيني مشورتك وصبرك الجميل.

لقد كنتِ مسكونة بعشقك للرسم منذ نعومة أظفارك، ولم يخذلك طموحك على الإطلاق،كان الرسم والألوان ملهاة طفولتك.. أذكر أن والدتي كانت مبهورة بك عندما كنت تساعدينها في الأعمال التي تحتاج إلى لمسات فنية وجمالية..وكنت تدهشيننا برسومك المعبرة بالفحم على الجدار وأنت في سن صغيرة جداً.

كنت كثيراً ما أسأل نفسي في ذلك الوقت.. من علمك سر الرسم والألوان؟ كانت تسكنك روح فنانة منذ نعومة أظفارك.. أذكر عندما كنا جالسين في البيت ذات مرة وسألت أبي قائلة:

- من أي منفذ تعبر الألوان إلى ضفاف العين يا أبي؟ اندهش الوالد من سؤالك في ذلك الوقت، وأنت لم تتجاوزي الخامسة من عمرك، قال لك: من أين تأتين بهذا الخيال الواسع يا ابنتي؟ أقلب في دفاترك بعد أن منحتني ضوءاً أخضر للاطلاع عليها ونشرها، قلت لي إنها غير منظمة، وعليك ترتيبها بتتبع تسلسل الأحداث فيها..

في البدء كان اللون فصار بعدها للحياة قيمة ومعنى، هكذا كان مكتوباً في أعلى الصفحة ذاكرة اللون.. عندما أنظر إلى السماء أعرف علو اللون، وعندما أتمعن في الأرض أعي قيمة اللون،

وعندما أتأمل الطبيعة الساحرة أكتشف جمالية اللون وسر الوجود.

مسكونة بعشقي للألوان منذ زمن بعيد.. في سن الطفولة كنت أجلس أمام ضفاف النهرأتأمل تفاصيله اللامرئية، تنفذ إلى أعماقي رائحته الزكية وهدير أمواجه الحالمة.

أغسل روحي بهوائه النقي، وأبلل وجهي من مياهه العذبة، أتكئ على وجعي ثم ألقي بأحزاني وشكواي وأوجاعي في داخله.. كانت تلك اللحظات تمنحني شعوراً بالرضاء وتغمرني بالسعادة والبهجة.. ليس هناك أجمل من الإبحار والسفر داخل دهاليز الروح في حضرة النهر الخالد.

جريد النخيل يتمايل بإيقاع منسجم مع صوت الريح الذي يهدهدها مثل الأم عندما تهدهد طفلها الصغير.. ووهج الشمس الذهبي يطفو فوق صفحات النهر، نسمات رقيقة من الهواء تصافح وجهي.. ألمح في الأفق البعيد الألوان الباهرة تتمدد في السماء الزرقاء، وتنساب بنعومة أمامي وأكاد ألمسها وأشعر بها طرية في راحة يدي، وقوس قزح يحملني معه بخفة أسبح في أروقة الفضاء الممتد، وأظل محلقة وهائمة في:

وهج اللون، عشق اللون، جنون اللون، طيش اللون، جموح اللون، شهوة اللون، شهقة اللون، رعشة اللون، شفرة اللون، فيض اللون، فضاء اللون، ثنايا اللون، عناق اللون، دروب اللون، مسارب اللون، لوعة اللون، شغف اللون، عفوية اللون، بساطة اللون، سيل اللون، عنفوان اللون، صخب اللون، هدهدة اللون، عزلة اللون،مفارقة اللون، رقة اللون، دهشة اللون، زخم اللون، ثراء اللون، امتداد اللون، جموح اللون، ذاكرة اللون، دفق اللون، شفافية اللون، حكمة اللون، بحور اللون، مقامات اللون، جمال اللون، ضجيج اللون، انبهار اللون، حيرة اللون، دفء اللون، وحدة اللون، مزاج اللون، رحيق اللون، امتزاج اللون، رهافة اللون، نزف اللون، قدر اللون،انداح اللون، عناق اللون، كثافة اللون، رمز اللون، عذوبة اللون، أفق اللون، بريق اللون، أروقة اللون، جرح اللون، تأويل اللون، سطوة اللون، روح اللون، ضفاف اللون، ربيع اللون، فجر اللون، تجلي اللون، كينونة اللون، براءة اللون، رحابة اللون، ديمومة اللون، ألم اللون، نعومة اللون، إغراء اللون، تحليق اللون، أهازيج اللون، محور اللون، دروب اللون، مناجاة اللون، شموخ اللون، كثافة اللون، شرود اللون، عافية اللون، صيرورة اللون، نبع اللون، سفوح اللون، مهد اللون، تباشير اللون، تخوم اللون، جاذبية اللون، هدأة اللون، جذوة اللون، وداعة اللون، أنشودة اللون، نبض اللون، ظلال اللون، انسجام اللون، عبق اللون، تراكم اللون، تناغم اللون، رسالة اللون، اختراق اللون، حصاد اللون، علو اللون، رشاقة اللون، إلهام اللون، موكب اللون، إشراق اللون، أثر اللون، أفق اللون، خصوبة اللون، صعود اللون،عاصفة اللون، أزمنة اللون، أسفار اللون، مدارات اللون، دهاليز اللون، مجاهل اللون، فصول اللون، حراك اللون، سفوح اللون، تجانس اللون، شطحة اللون، تمرد اللون، سحر اللون، براح اللون، متاهة اللون، خلود اللون، تحليق اللون، نبوءة اللون، نواة اللون، غموض اللون، طقوس اللون، أطلال اللون، حصن اللون، ذهول اللون، تراتيل اللون، ترانيم اللون، طيف اللون، بهاء اللون، ذروة اللون، كمال اللون، وحنين اللون إلى لحظة ميلاده الأولى، والتوق إلى عوالمه المجهولة.. وشهوة الرحيل لما وراء مدارات اللون وأسراره الغامضة وشفراته التي لا يعرفها سوى الحالمين والعارفين ببواطنه وخفاياه.

فتحت نافذة الشرفة المطلة على الحديقة المجاورة وأخذت معي فنجاناً من القهوة ممزوجاً بنكهة الزنجبيل، كنت بحاجة ماسة إليه في ذلك الوقت، القهوة رفيقة دربي المفضلة..

ارتبطت بطقوس القهوة منذ زمن بعيد، فهي تذكرني بأمي، لذا عقدت معها رباط حب أبدي، كلما أتكلم معها عبر الهاتف أقول لها: مشتاقة إليك وإلى طيبتك وإلى رائحة قهوتك المعتقة وجلسة حميمة في حضرتك.. هل تصدقين أنني أشم رائحة قهوتك هنا في كثير من الأحيان.. تقول لي بصوتها الحنون.. إلى متى سوف تتغربين عنا يا هاجر؟.. إذا نحن معكم اليوم لا ندري أين سنكون في الغد؟ أطمئنها بقليل من الكلمات: قريباً يا أمي سأحضر.. لكن لا أدري متى ستكون قريباً هذه.. وكتبت بعد أسابيع من ذلك اللقاء الأخير الذي جمعنا:

يوم ودعتك آخر مرة

تركت قليبي هناك معاك

مشيت زي ضلا راح متخبي

لا بيعرف صوت ولا طعم الموت

دموع عينيك بتساوي الدنيا

والفرحة معاك أجمل غنية

رويحتي تسابق في الأيام

حلمها كان تعيش في سلام

مين يقدر يفارق طيبتك ويفضل

تائه طول عمره في سيرتك

وصيتك لي أبداً ما ناسياها

وعايشة دوام في طيف ذكراها

مكتوبة علينا يا يمة الغربة

ما دام حال البلد أصبح كربة

مصيرنا الرجعة مهما كان

بس يا ريت الوطن يكون الكان

****

أصبح الجلوس عند الشرفة وإطلالتها على خط الأفق جزءاً من طقوسي اليومية، كنت مشدوهة بسحر الأفق وروعة المنظر البديع.. أتمعن في ذلك الدرب المخملي الفسيح الذي يؤدي إلى عالم آخر مجهول الملامح أتوق إلى معرفة خباياه وأسراره.. في بعض الأحيان، أتخيل نفسي أتسلق الغيوم، وأسابق الريح، وأقذف بنفسي في ذلك الأفق السرمدي.

كم هو واسع هذا الكون؟ ماذا نساوي نحن أمام النجوم والكواكب؟ لا شيء.. لا شيء.. كم أشعر بضآلة شديدة وأكاد أخجل من نفسي.. في لحظات السكون الخالدة تلك كان صوت الشيخ عبدالباسط عبد الصمد وهو يرتل آيات من الذكر الحكيم صوتاً عذباً ترق له القلوب..

ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ

تأملت برهة في ذلك الفضاء الشاسع ثم سألت نفسي: هل سأركب إحدى تلك الطائرات في القريب العاجل وستكون رحلتي الأخيرة؟

كنت بصدد إكمال قراءة كتاب خارج المكان لإدوارد سعيد.. عنوانه يتناسب مع حالتي هذه تماماً، لكنني كنت متعبة الذهن والجسد، شعرت بنعاس شديد وتهت في دهاليز إغفاءة عميقة لم أفق منها إلا قبل لحظات قليلة من شروق الشمس.

نسائم الصباح الجميل صافحت وجهي برقة وعذوبة، استنشقت عبق الأزهار المرصوصة على حافة الشرفة والمغسولة بقطرات المطر.. أطلت جارتي اليونانية كاليستا من على شرفتها المجاورة باسمة ومشرقة كلون الصباح الربيعي.. كان يجمعنا معاً عشق الزهور والنباتات الطبيعية، وقد كان لها باع طويل في هذا الشأن لا أجاريها فيه.. تتحدث عن الزهور بحب بالغ كأنها أبناؤها الصغار.. أتذكر مرة في إحدى زياراتي لمدينة أمستردام في موسم الربيع الماضي، أحضرت لها هدية عبارة عن بذور من الأزهار التي تشتهر بها هولندا.. كانت فرحتها بتلك الهدية لا تحدها حدود، وبعد فترة من الزمن قالت لي:

- أنظري إلى تلك الزهور التي جلبتها لي من أمستردام كم كبرت وتفتحت.. يمكن القول إن شيئين لا ينافسها فيهما أحد، حب البشر وحب الزهور..

حدثتني كاليستا في ذلك الصباح عن زهرة الأوركيد، أجمل زهرة في الوجود حسب وصفها، وأعطتني نبذة فخمة يمكن أن تكون محاضرة كاملة المحتوى في علم الأزهار، وعن تاريخ زهرة الأوركيد الذي يرجع إلى سنة 700 قبل الميلاد عند الصينيين، ولم تنس أن تخبرني كيف دخلت زهرة الأوركيد إلى أوروبا عبر هولندا في القرن الـ 17، ومنها انتقلت إلى بريطانيا وبقية الدول الأوروبية، وكانت تزرع في الحدائق الملكية..

وختمت حديثها عن جاذبية الأوركيد وجمالها الطبيعي الذي يمتاز بالغرابة والدهشة في آن واحد، أليس كذلك يا هاجر؟ أنتِ فنانة تشكيلية تفهمين أكثر مني في هذه الأشياء..

تريد أن تدخلني جو حديثها العذب.. أجبتها: إنني أسمعك بكل حواسي يا كاليستا..

ودعتني بعد أن قالت لي ضاحكة: تريدينني أن أتحدث حتى أطرد من العمل اليوم بسببك، وبسبب زهرة الأوركيد، أراك لاحقاً عند المساء يا صديقتي لنتناول معاً شاي الياسمين..

كان لكاليستا طقوس رائعة تعرفها وحدها، مثل طقس الشاي بنكهة الياسمين، والشاي الأخضر.. يمتاز شاي الياسمين بنكهة زكية جداً إضافة إلى فوائد أخرى كثيرة.. كانت كاليستا في غالب الأحيان تدعوني لمشاركتها في الاحتفاء بهذا الطقس المحبب إليها، بل أكثر من ذلك لقد شجعتني على تعوُّده وخصوصاً الشاي الأخضر..

قلت لها ذات مرة: الآن فقط عرفت سر رشاقتك وحيويتك الزائدتين.

ردت قائلة بخفة دمها: أعطيني نفسك شهراً، وسوف أجعلك أنحف مني بخمسة كيلو غرامات..
قلت لها: لو كان الأمر كذلك فسأعطيك نفسي لمدة شهرين.

في فصل الصيف كانت كاليستا تنظم يوماً ترفيهياً لسكان البناية، تجمعهم في الهواء الطلق بالحديقة الخضراء تحت خيمة حب وفرح كرنفالية.. وتقوم بتسلية الأطفال الصغار ببرامج ترفيهية متنوعة تستمر حتى مغيب الشمس، لِذا لا يملك الصغار إلا أن يتحلقوا حولها ويحبوها بشدة لأنها تغمرهم بحنانها وعطفها. قدمت كاليستا اقتراحاً بتنظيم رحلة جماعية لمدة أسبوع داخل أو خارج البلاد وذلك لخلق مزيد من التواصل ونوع من التغيير. كانت تتمتع بشخصية اجتماعية بامتياز متعددة المواهب ومتفردة الخصال، لها روح مرحة ومحبوبة.. جميلة كمعنى اسمها الذي يحمل الجمال الإغريقي العتيق الذي يسمع عنه بين صفحات الكتب والأساطير اليونانية القديمة، كاليستا امرأة من نور وضياء وعبق السوسن وخلاصة الزهر والياسمين..

ضباب أبيض شفاف ينبعث من الأرض يرتفع ويتراقص في الفراغ وسط الحديقة الخالية إلا من النوارس البيضاء.. بعض العجائز يمارسن رياضة السير الصباحي المعتاد، كنت في بعض الأحيان ألتقيهن فيسألنني عن أحوالي حتى صرت أعرفهن بعد ذلك، وتوطدت علاقتي بهن..
سألتهن عن السيدة أنوش الأرمنية.. فقلن لي إنها ذهبت لزيارة ابنها في أستراليا ولم تعد حتى الآن، وعلقن مازحات: ربما طاب لها البقاء هناك بدلاً من هذه البلاد الباردة..

كنت أجلس معها ساعات طويلة على أريكة الحديقة تحت أشعة الشمس الدافئة.. كم أشتاق إلى الحديث معها.. ذكرت لي مرة أنها غادرت بلادها منذ أكثر من سبعة عقود ولم تعد مرة أخرى إلى هناك..

ذاكرتها حاضرة وصافية جداً، تحكي التفاصيل بدقة تحسد عليها وكأنها تتحدث عن أشياء حدثت يوم أمس القريب، لها موهبة فائقة في الحكي.. كنت أظل مشدوهة بالاستماع إليها بكل حواسي، وأرى ما تقوله أمامي كأنه شريط سينمائي جيد الإخراج.. كانت حكاياها مأخوذة بسحر وجمال السرد وروح الأسطورة، أذكر جملتها الأخيرة في آخر مرة كانت تتحدث فيها عن وطنها الذي لم يفارق مخيلتها قط قالت:

- الوطن هناك تحول في وقت من الأوقات إلى سلسلة من الفواجع والمآسي التي لا تحصى ولا تعد.. كنا نحن الأحياء بحاجة إلى ترميم خرابنا، وإلى يقين يجعلنا نتماسك أمام وجه الانهيار والانكسار الكبير..

كان لسان حالنا يردد في ذلك الوقت:

أيها الوطن الضائع، من سرق منك طفولتك العذبة وأحلامك الوردية البريئة؟

هناك سؤال ظل يدور في ذهني مدة من الوقت، وكنت قد أجلته مرات كثيرة.. إلا أنه خرج هذه المرة من لساني بدون تردد:

- هل شاهدت أحداث المجزرة هناك، يا جدة أنوش؟ صمتت فترة من الوقت ثم أجابتني بعد أن مسحت الدموع من عينيها:

- نعم شاهدت تلك الأحداث هناك ولولا تدخل العناية الإلهية لكنت في عداد أولئك الضحايا..

ولا أخفيك أنني أشعرأحياناً أنني توفيت منذ تلك الأيام، وكل حياتي هذه مجرد استثناء ومنحة ربانية، لقد كان شعبنا يقتل ويذبح على مرأى ومسمع من العالم دون أن يحرك أحد ساكناً، والمؤلم أن الأمر يتكرر الآن في مناطق عديدة في العالم من دون أن تعي البشرية الدرس أو أن تستفيد من

تاريخنا الحافل بأنهار الدماء والضحايا.. قيمة الإنسان أصبحت رخيصة يا صغيرتي في هذا الكوكب الهمجي، ولم يعد لها شأن.. في هذا العالم البغيض غاب صوت العقل والضمير والأخلاق، ولا تسود سوى ثقافة الانتهازية والخداع والانحطاط..

عندما غادرنا مدينة يريفان كان عمري حوالى سبع سنوات، عشنا قرابة عقدين من الزمان في مدينة حلب السورية بعد أن وصلنا إلى هناك بأعجوبة أو يمكن أن تسميها معجزة.. المفارقة أن المدينة نفسها التي احتضنتنا عقدين من الزمان تعاني الآن المصير البائس نفسه الذي لاقيناه في بلدنا الأم.. لكأن الشقاء والتعاسة يلاحقان الإنسان أينما ذهب، أشعر من هنا كأن المدينة تكاد تصرخ من هول الدمار والخراب، قائلة في وجه آلة الحرب الدموية: أبعدوا هؤلاء القتلة عني.. لا شيء يردع غرور الإنسان وتسلطه سوى الموت.. حين تمتلئ عيناه بالتراب حينئذ سيعرف قدره تماماً.. قلت لها إنك محقة في قولك وللأسف نقف عاجزين أمام هذه المشاهد الجحيمية، لكن سينتصر الحق في آخر المطاف.. كل نقطة دم تسيل على هذه الأرض تؤكد شيئاً واحداً، وهو أن البشرية في ورطة كبيرة لا تحسد عليها..

- ما أقسى الحنين والشوق إليك يا حلب! مدينة تسكن الروح وتتغلغل في الأعماق، تحلق بي ذكريات كثيرة هناك في مدينة حلب الشهباء لاأزال أحملها في ذاكرتي حتى الآن، فهي المدينة التي نشأت فيها ودرست في مدارسها وصرنا جزءاً من شوارعها وأزقتها العتيقة.. هل قرأت ما قاله الأخطل الصغير عن مدينة حلب؟

لو ألف المجد سفراً عن مفاخره لراح يكتب في عنوانه حلبا

- لم أسمع بهذا البيت الشعري من قبل، لكن أعرف أنها مدينة ملهمة للكثيرين من الشعراء..

لقد زرت مدينتَيْ دمشق واللاذقية عدة مرات، لكن للأسف لم تتح لي الفرصة لزيارة حلب..

- لقد عانيت الغربة في حياتي يا صغيرتي على جميع الصعد، غربة الروح والمكان، ولا أود أن أعانيها في موتي لذا طلبت في وصيتي أن أدفن في بلدي الذي أشتاق إليه الآن أكثر من أي وقت مضى، إذا لم تتح لي الفرصة أن أعيش فيه طوال حياتي السابقة، فأود فقط أن أدفن في ترابه.. ساد الصمت، ولا شيء غير الصمت الحزين..

نظرت إلى أغصان تلك الشجرة الكبيرة التي كنا نستظل تحتها.. سألت نفسي هل تعلم هذه الشجرة مدى عذابنا في هذه الحياة؟

وكأنها علمت ما كان يدور في ذهني في تلك اللحظة فقالت لي:

- هل تخاطبين الأشجار يا صغيرتي؟

ابتسمت وقلت لها: ما أصدق حدسك.. نعم يا جدة أنوش كنت أخاطب الشجرة، قلت: ليتني كنت ورقة خريف سقطت من ذاكرة الضوء وحسابات الأشجار..

قالت لي بعد أن تمعنت في الأفق البعيد والسماء الزرقاء مدة من الوقت:

- تسعة وسبعون عاماً في هذا العالم.. لم أنظر إلى هذه السماء كما نظرت إليها هذا اليوم..

– إن زحمة الحياة ومشاغلها أحياناً لا تعطينا مساحة كافية للتأمل في هذه المشاهد..

- معك حق بكل تأكيد يا صغيرتي..

كم أفتقدها الآن وأتمنى ألا يطول غيابها.. فقد كانت شخصيتها مرحة ومحبوبة إلى أبعد الحدود، قالت لي ذات مرة:

- أعذريني أكثرت عليك بالحديث، تعلمين ثرثرة الكبار.. أنتِ من القليلين الذين أتكلم معهم، أبنائي مشغولون بحياتهم وبمشاكل أطفالهم الصغار..

ودعتني بعناق حار في ذلك اليوم ثم قبلت رأسها وانصرفت بهدوئها المعتاد.. كانت أنوش تذكرني بجدتي، تجمعهما صفات عديدة مشتركة وخصوصاً في سرد القصص.. كانت جدتي تمتعنا بقصصها وحكاياتها التي لا نمل سماعها وحكمها البالغة، وكان لها أسلوب مميز في الحكي ووصف الأحداث بدقة متناهية.. كانت جدتي تستمد حكاياتها من مدينة دنقلا التي ولدت ونشأت فيها، ولم تغب عن ذاكرتها حتى فارقت الحياة..

تحفظ تاريخها وتراثها وأحاجيها وأساطيرها وأغانيها وعاداتها وتقاليدها وأمثلتها، كنا ننظر إليها بإعجاب ودهشة، ونسألها ببراءة كيف تحفظين كل هذه الأشياء في ذهنك يا جدتي؟

كانت تبتسم وتقول لنا: كانت حياتنا بسيطة، وغير معقدة مثل زمنكم المسخوط هذا..

كم نفتقدك الآن يا جدتي.. رحلت وتركت خلفها مساحة شاسعة من الحزن والفقد، حتى الإنسانة التي كانت تذكرني بك اختفى أثرها، وغاب وهج حضورها المشرق من الحديقة الخضراء..

يا جدتي أنوش.. لو كنت أعلم أن ذلك اللقاء سيكون الأخير بيننا لكنت جلست معك حتى المساء.. وودعتك بعدها بكثيرمن الحزن والأسى.

تذكرت كلام الجدة أنوش عن الدمار والخراب هناك في بلاد الشام.. ظل مشهد ذاك المغني الذي قطعت حنجرته في ذهني لأيام وليال طويلة لم تفارقني قط.. أشعر بمرارة وعبرة في حلقي..
فاجأني عامر بالنص الذي أرسله لي عبر الإيميل قبل يومين، كان يدور حول الموضوع نفسه وكان عنوانه (صوت الغائب وحوار الأشباح)..

(ذات شتاء قارس وظلام دامس، كان يتردد من على البعد صوت أهازيج وإيقاعات لا يعرف أحد مصدرها، هل هي من عالم الجن أم الإنس؟ وأكثرما كان يزعج أحد الضباط أن الصوت حرمه النوم فترة طويلة...

يتردد صدى صراخ عالٍ وأصوات تهتف بشدة وبصورة هستيرية:

حرية

حرية

حرية

الضابط يقول بدهشة وحيرة:

- ما هذه الأصوات التي تصرخ في أذني؟

وأكاد أشتم رائحة دم بشري طازج..

- أي أصوات وأي دماء؟ لم أسمع شيئاً سيادتك..

ربما تكون مجرد أوهام في رأسك..

- ماذا؟ أوهام في رأسي يا ابن الكلب، هل تصفني بالجنون؟

- معاذ الله يا سيدي، ربما ضميرك فقط يؤنبك لمنظر الدماء التي سالت من حنجرة ذلك المغني الذي ذبحته يوم أمس بيدك بدم بارد...

- وأنت أين ضميرك أفي إجازة يا وغد؟

- أنا أنفذ أوامركم فحسب...

- لو أمرتك أن تخرج مسدسك الآن وتفرغه في رأسك الفارغ هذا هل ستفعل؟

- أخرج الجندي المسدس ببطء ونظراته مصوبة نحو عيني الضابط مباشرة:

سأفعل يا سيدي بكل تأكيد.. لكن اسمح لي أن أقول إنني سأفرغه في رأسك الفارغ المليء بالأوهام.... وبعد أن استقرت عدة طلقات في رأس الضابط... غسل الجندي يديه وقال في سره:

- دام الوطن للجميع.. والآن إلى طريق الحرية، الحرية، الحرية..

في ذلك الوقت كانت الأرض مغطاة بالدماء، الأحجار تنظر بذهول إلى هذا المشهد العبثي وتقول لنفسها: أيها الإنسان هنيئاً لك بورطتك الأبدية، أما أشلاء الضحايا المتناثرة على الطرقات فكانت تردد بخشوع:

دمي فوق يدي

وكفني فوق جسدي

وحتماً سينتصر موتي.

كنت محتاجة أن أتمشى لبعض الوقت، وقد أراحتني تلك اللحظات التي خرجت فيها من البيت.. أشعر بمفعول الأدوية والعلاج يتسرب داخل جسدي.. اتجهت صوب أحد المحال المختصة ببيع أدوات الرسم، اشتريت بعض الأدوات التي كانت تنقصني.. أتمشى على مهل وذهني شارد في البعيد ترافقني أغنيات في المحمول أكسر بها حاجز الملل والرتابة والصمت..

ألمح بعض المتسولين يستجدون عطف المارة الذين في غالب الأحيان لا يأبهون لهم.

عازف ساكسفون ضرير ينثر ألحاناً عذبة في حضرة نهار صيفي متخم بمشاهد البهجة في وجوه المارة والعابرين.. عند الناصية الأخرى من الشارع فرقة من هنود الأمازون يقدمون مقطوعة رائعة ذات شجن وحزن عميق، صفق لهم الحضور بعد انتهاء المقطوعة..

سألت نفسي: هل تجمّع حزن العالم كله في هذا الطريق؟.. وقفت أستمع إليهم حتى النهاية إلى أن عرضوا بعد ذلك ألبوماتهم للبيع بأسعار زهيدة اشتراها الجمهور بلهفة شديدة...

تذكرت أنني أمتلك بعضاً من ألبومات موسيقى الهنود الحمر اشتريتها مرة في ساحة الدام الشهيرة في مدينة أمستردام..

صديقتي هيلين فنانة هولندية درست معي في أكاديمية روما للفنون الجميلة، حفزتني لسبر أغوار الهنود الحمر، وكنت قد التقيتها العام الماضي في أحد معارض الفنون المشتركة بمدينة أمستردام.. إضافة إلى كونها فنانة تشكيلية فهي باحثة ومتخصصة في تاريخ الهنود الحمر، وكانت مهووسة بكل بشيء يسمى الهنود الحمر، تحفظ تاريخهم على ظهر قلب وتعتبرهم عالمها الأول والأخير..

معظم رسومها مستمدة من حياتهم ومعاناتهم الطويلة.. وعندما دعتنا مرة لزيارة بيتها في مدينة هارلم.. اندهشنا من ديكور بيتها الذي يبدو وكأنه متحف عن الهنود الحمر.. سألتها ذات مرة ما سر شغفك الكثيف بهم؟

صمتت فترة ثم قالت لي: أشعر في كثير من الأحيان أن جذوري تعود إلى عالمهم الساحر..

شاهدت فيلماً عندما كنت صغيرة ترك أثره العميق في نفسي وغيّر نمط حياتي رأساً على عقب، ومنذ تلك اللحظة أصبحت حياتهم جزءاً مني وصرت جزءاً منهم...

للحقيقة، لقد أضاءت لي هيلين جوانب كثيرة كانت معتمة وغير معروفة بالنسبة إلي عن عوالم الهنود الحمر.. وقد كتبت عنهم عدة أبحاث نشرت في مجلات علمية متخصصة.. إضافة إلى محاضراتها التي تلقيها في عواصم عديدة من العالم.

تبقّى أسبوعان لموعد تسليم أعمالي واللوحات للمشاركة بها في متحف لندن التاريخي، ضمن أسبوع الثقافة النوبية القديمة (رحلة في أعماق الحضارة النوبية القديمة) أنجزت سبعة أعمال وتبقى ثلاث لوحات، بالإضافة إلى تصميم مجسّمين والإعلانات المعلقة..

كانت أوقاتي موزعة بين الرسم والقراءة والكتابة والتدوين.. تأتيني الأفكار في كثير من الأحيان من عوالم قصية نابعة من دروب الأحلام الرحبة.. هل كنت قد نذرت نفسي للحلم وللريح والقلق..

عند عودتي إلى البيت جلست على الأريكة ثم أدرت جهاز التسجيل، جاء صوت المطرب محمد منير ليعم أرجاء المكان، ويضفي على النفس لحظات طرب شجية وساحرة..

(بحر الحياة غدار وإحنا لفين رايحين

شايل معاه أسرار وإحنا معاه ماشيين

أيام تفوت وتروح وإحنا ولا حاسين

أحلام تعيش وتموت يا قلوبنا يا خايفين).

صوت يختزل آهات الحالمين وأوجاعهم، طوبى لك يا منير، وأنت تبحر بنا في الأعماق بصوتك العذب الذي يهز الوجدان ويرجّ صفحات الروح، ويطوف بها في العوالم البعيدة.. أي حنين وحزن وجنون ذلك الذي يسكن صوتك؟

وقبل أن تنتهي الأغنية سمعت صوت نقر خفيف على الباب، كان الطارق هو صديقتي ماريكا التي تسكن في البيت المقابل قالت لي:

- ما أجمله من صوت يا هاجر، من هذا المغني؟

- قلت لها إنه الفنان المصري المعروف محمد منير..

ردت بهدوئها المعتاد:

- من سوء حظي لم أسمعه من قبل.. معرفتي تقتصر على أم كلثوم وفيروز، لا أخفيك، تأسرني موسيقى الشرق الساحرة بشدة، فقد زرنا بعض المدن هناك مثل (القاهرة، دمشق، بيروت وبغداد) مع والدي ولاتزال تلك الصور مرسومة في مخيلتي، يبدو أنني سأستمع كثيراً إلى محمد منير منذ الآن، وسأكون مدينة لك إذا علمتني اللغة العربية.

- قلت لها ضاحكة، بشرط واحد أن تعلميني العزف على آلة الكمان، ردت علي بابتسامة عذبة:

- ألا يكفيك العزف بالريشة والقلم يا صديقة.. ثم قالت لي: موافقة.

قلت لنفسي، لو يمهلني الوقت لتعلمت العزف على آلة الكمان منك يا صديقة، ولكن هل يمهلني الزمن لذلك..

وبينما كنت أعد لها فنجان قهوة في المطبخ، سمعتها تعزف على آلة الكمان مع موسيقى محمد منير بكل انسجام..

تحضن كمانها وتبحر به صوب عوالم مدهشة ورائعة من الجمال والنقاء والشفافية؛ فالموسيقى تسمو بالروح وترهف القلب وتهذب النفس والضمير وتجعلها في حالة تصالح وسلام روحي تام..

فرحت بشدة عندما أخبرتها أن فرقته تضم عازفين من جنسيات مختلفة، ألمانيا ورومانيا وبولندا إضافة إلى مصر، قالت لي:

- كلما تنوعت الطيور في الحديقة كان الغناء متنوعاً، هكذا تقول إحدى الحكم القديمة..

- معك حق، الموسيقى لغة عالمية شفافة لا تعرف الحواجز والتمييز، وتتجاوز كل اللغات المحكية.. وقلت لها: يمكنك أن تراسلي فرقة محمد منير، وتطلبي أن تنضمي إلى فرقته..

- كم أتمنى ذلك يا هاجر، سوف أراسلهم في أقرب فرصة مقبلة..

علقت ماريكا على لوحة كانت معلقة على جدار الصالة، وكنت قد أنجزتها تواً، ألوانها لاتزال بعد طرية.. ولم ترها من قبل (قيثارة النيل) اللوحة كانت لفتاة جالسة تحت شجرة نخيل عالية على ضفة النهر وهي تعزف على آلة كلارنيت.. يظهر في الخلفية شكل لمركب عابر في وسط النهر..

ـــ كم هي رائعة هذه اللوحة يا هاجر.. لقد أبدعتِ فيها بمعنى الكلمة، وهذا ليس إطراء بل حقيقة.. لكن قولي لي، لا بد أن هناك شيئاً ما يربطك بتلك الفتاة في اللوحة؟

- معك حق، تربطني بها صلة دم وروح.. لم أخبرك من قبل عن شقيقتي الصغرى التي كانت تجيد العزف على الكلارنيت، وتعلمت منها الكثير عن عالم الموسيقى ومبادئ العزف على بعض آلات النفخ.. لقد توفيت قبل عامين، وشاءت المصادفة أن تكتمل هذه اللوحة في ذكرى رحيلها الثاني الذي يصادف اليوم..

تأثرت ماريكا وقالت لي: إنها تأسف على رحيلها.. شكرتها على مواساتها لي.. وواصلت:

- لوحاتك تدعو للتأمل والإعجاب، وربما تلهمني في يوم من الأيام لتحويلها إلى قطع موسيقية، هكذا هي الفنون، يستقي بعضها من بعض، ويكون بعضها امتداداً لبعض.. أليس كذلك؟

- بكل تأكيد.. ولي عظيم الشرف لو وجدتِ مصدر إلهام في هذه الأعمال المتواضعة..

ماريكا هي أول من تعرفت عليها في البناية التي أسكنها، قالت لي عند أول مرة نلتقي فيها عند مدخل البناية، أتمنى ألا أكون أزعجتك بالتمارين على آلة الكمان؟

- بالعكس من حسن حظي أن تكون جارتي موسيقية ماهرة مثلك، تروقني الموسيقى لدرجة أكثر مما تتصورين..

صوت الكمان الناعم وهو ينداح بعزفك المثير للإعجاب الذي يحرك الأعماق، شكل لي مساحة من الجمال والتأمل، كنت بحاجة إلى تلك اللحظات الناصعة الوضوح، وأنا مدينة لك بتلك القطع الموسيقية الباهرة التي تزينين بها أمسياتي.. ولا أخفيك سراً بأن وجودك شكل لي حافزاً لكتابات ورسوم مؤجلة منذ زمن بعيد..

منذ ذلك التعارف توطدت صداقتنا وجمعتنا أشياء كثيرة مشتركة، عشق الفن والموسيقى والأدب، كنا نتخاطب بلغتين، الإنجليزية والبولندية، وأذكر مدى سرورها عندما علمت أنني درست الفنون الجميلة في جامعة وارسو، ومن ثم انتقلت إلى جامعة روما لمواصلة الدراسات العليا في أكاديمية روما للفنون الجميلة..

ماريكا عازفة كمان محترفة، وعضو بارز في فرقة أوركسترا لندن السيمفونية، وتعمل أستاذة مشاركة في إحدى كليات الموسيقى بلندن.

قالت لي في إحدى المرات إن والدها مؤرخ وباحث في علم الآثار، ومهتم بشكل خاص بحضارة وادي النيل والحضارة السومرية، إضافة إلى كونه موسيقياً من الطراز الفريد يجيد العزف على عدد من الآلات الموسيقية، ومن هنا كان شغفها وولعها بالموسيقى منذ نعومة أظفارها.

قال لي عامر ذات مرة: لو لم تكن صديقتك ماريكا موسيقية محترفة لكانت ممثلة سينمائية أو عارضة أزياء عالمية، فقد كانت آية من الجمال والوسامة، وذات قوام فارع.

هادئة الطباع، وقلبها نقي، كالأطفال الصغار.. روحها تشع إشراقاً ومحبة للآخرين، كانت الموسيقى حبها الوحيد في هذا العالم..

قلت لها ذات مرة إنّ مجاورتي لك في السكن تذكرني بقصة الرسام الايطالي كوستا لورينزو الذي عاش في عصر النهضة، وحكايته الشهيرة مع جيرانه عائلة بارتولوميو، فقد كان أبناؤهم الثلاثة موسيقيين مهرة، يؤانسونه بطربهم وعزفهم، ويجعلون الساعات الطوال التي يرسم فيها قصيرة، وفي إحدى المرات أسرفوا في الغناء والسهر لدرجة أنه لم يستطع النوم، وفي اليوم التالي حضروا إلى بيته واعتذروا منه بلباقة، وعزفوا أمامه القطعة الموسيقية الغنائية التي تمرنوا عليها، وضمنوها مقطعاً مدحوا فيه الرسام كوستا، فقبل اعتذارهم، وأحضر عدة الرسم ورسم لوحته الشهيرة (الجوقة الموسيقية) وكانت من أعز إنجازاته لنفسه..

قالت لي ماريكا: في هذه الحالة إذاً أنا المحظوظة كوني أصبحت جارتك.. قلت لها: ما أجمل تواضعك وبساطتك يا صديقة.. ذهبنا وجلسنا عند الشرفة.. كان الطقس رائعاً في ذلك اليوم، وتمتعنا بمشهد الطائرات العابرة التي كانت تجوب الفضاء، أعجبها بشدة ذلك المنظر الجميل المطل على الحديقة..

قالت لي: أن تسافري شيء، وأن تتأملي السفر من هذه الزاوية ومن عدة جهات شيء آخر.. للسفر متعة خاصة لا تضاهى، بالذات تلك الأمكنة الجديدة التي لم ترها الأعين من قبل..

- بوصفك موسيقية يا ماريكا أود أن أسألك سؤالاً؟ أكيد أنك شاهدتِ فيلم تايتانك، ولا شك أنك تتذكرين مشهد بعض العازفين المؤثر وهم يواصلون العزف حتى اللحظات الأخيرة قبل غرق السفينة وسط الصراخ والعويل..

منهم من هرب بجلده ومنهم من ظل صامداً حتى النهاية.. هل مشهد العزف في ذلك الوقت مقنع من وجهة نظرك؟..

- أتذكر ذلك المشهد، فقد كان مؤثراً جداً، وملاحظتك دقيقة جداً.. أعتقد أن العازفين كانوا في حالة انسجام تام وتماهٍ مع العزف، ورغم علمهم بمصيرهم القادم لكن لا شيء سيوقفهم عن مواصلتهم ذلك؛ الموسيقى حالة انتقال واستمرارية، وعندما تبدأ المقطوعة على خشبة المسرح ينبغي أن تستمر حتى النهاية.. في كثير من الأحيان عندما يحتضن العازف آلة الكمان يغمض عينيه ويرتحل محدقاً إلى البعيد ويغيب عن عالم الواقع.

- كأن الموسيقى تمثل لهم اليقين وفعل الخلاص الأبدي..

سألتني ماريكا عن سبب حضور النهر الكثيف في لوحاتي وقصائدي؟

سرحت فترة من الوقت ثم قلت لها:

- النهر هو كل حياتي يا صديقة، عندما كنت صغيرة أحببت هدير أمواجه الصاخبة ونسائم رائحته العبقة التي كانت تسكن أعماقي، وتتغلغل داخل روحي، فهو أسطورة حية منذ آلاف السنين نراه يتمدد أمامنا ونسبح في حناياه من خلال الواقع والخيال والحلم.. فقد كان النهر مصدر إلهام ووحي للشعراء والفنانين والكتاب والفلاسفة والمتصوفين.. نظرة واحدة إلى النهر والتأمل فيه بعمق قادرة أن تنسي الإنسان كل هموم الحياة وصخبها.. رائحة النسيم المنبعثة منه تكاد تسكر الروح وتجعلها منتشية ومحلقة في عوالم من الدهشة..

كانت جدتي امرأة بارعة في السرد والحكي عن الأساطير وأسرار النهر، وقد تركت أثراً كبيراً في تكويني الشخصي، كنا نعيش داخل عوالم سردها الساحرة والأسطورية وننفصل عن هذا العالم.. هكذا خرجت من رحم كل تلك الأجواء البسيطة النقية..

رغم المسافات الطويلة التي تفصلني عن ضفاف النهر، إلا أنه حاضر في بكثافة لكأني لم أغادره قط، أشعر به أمامي في كل وقت وأحمله معي في دواخلي أينما حللت وذهبت..

كل تلك البدايات مجتمعة تركت الأثر الكبير في تكويني أعبر عنها بفرشاتي وأترجمها في أعمالي الفنية أو عبر القصائد، وكثيراً ما تتداخل الأفكار بعضها مع بعض، تترك اللوحة أثرها في القصيدة مثلما تترك القصيدة أثرها في اللوحة.. التلوين هو متعة النظر وراحة للنفس وبذرة الجمال الدائم الذي لا ينقطع، ولو جاز تصنيف أعمالي في مدرسة معينة قد تجدين فيها الكثير من التأمل والصوفية والسوريالية.. على الشخص المبدع أن يسعى بصفة مستمرة أن يتخطى ذاته ويسعى لخلق عالم متفرد ومتجدد..

- هل دراستك للفن في وارسو وروما أضافت إليك الكثير؟

دراستي للفن التشكيلي في وارسو ثم روما أفادتني كثيراً في مسيرتي الفنية، واستفدت كثيراً من أساتذة أجلاء وفنانين ورسامين كبار كان لهم الأثر البالغ في صقل موهبتي وتطويرها، لكن كما

تعلمين فإنّ المدرس يصلك ببداية الطريق ويترك لك بقية الطريق لكي تجتازيه وحدك حسب أسلوبك وأفكارك وموهبتك وحدسك..

يقول الشاعر محمود درويش: كن النهر ولا تكن الماء تلك هي الخصوصية..

- قد يكون السؤال تقليدياً نوعاً ما.. لكن فضولي يدفعني إليه كيف تولد فكرة العمل الفني لديك سواء كان قصيدة أو لوحة فنية؟

أكون صادقة إذا قلت لك إنني لا ألهث وراء فكرة الخلق بقدر ما تأتيني في كثير من الأحيان وحدها وتفرض نفسها، وفي بعض المرات تأتيني الأفكار من عالم الأحلام النقية.. أرى اللوحة أو القصيدة أمامي مكتملة التفاصيل وبعدها إحساسي هو الذي يقودني للبوح والتعبير بالوسائل المتاحة لي عبرالقلم أو الريشة، وكما تعلمين إن الفن هو محاولة لإعادة خلق وتشكيل الواقع برؤية جديدة ومغايرة.

ما أجمل التحليق بأجنحة الحلم والخيال نحو الفضاء الحر الواسع والشغف بتخوم تلك الآفاق البعيدة والمجهولة.. أجمل الأوقات هي تلك التي أقضيها في مرسمي، فهو عالمي الصغير ومنظاري نحو العالم، عبره وعبر هذه الشرفة التي تطل على الحديقة الخضراء والسماء الزرقاء أجد نفسي تائهة في عالم رحب وجميل..

حكت لي ماريكا عن بعض المدن التي زارتها برفقة الفرقة الموسيقية من سيدني حتى جوهانسبيرغ، ومن كييف حتى ريودي جانيرو.. قالت لي لكل مدينة خصوصيتها وفرادتها، لا مدينة تشبه مدينة أخرى.. وسألتها عن مكان حفلتهم المقبلة فأجابت في مدينة براغ.. قلت لها كم أود أن أزور تلك المدينة التي ولد فيها فرانز كافكا...

- من يدري يا صديقة ربما تتحقق أمنيتك في يوم من الأيام، نظرت إلى ساعتها واستأذنت بالمغادرة لموعد بروفة فنية، فوعدتها بالقيام بتسجيل زيارة لها قريباً..

لا شك أن وجود ماريكا أضفى مسحة إشراق وحالة جمالية رائعة لا تضاهى على نفسي، وزاد من مزاج وطقوس الكتابة والرسم عندي، حيث تبعد النفس عن عالم الواقع الغارق في الروتين الرتيب، مطلقة العنان للتأمل، وفاسحة الطريق للتسكع في أزقة ودروب الخيال بكل براح وحرية؛ وكنت قد عرّفتها بعدد من أصدقائي من رسامين وكتاب وموسيقيين فرحبوا بها بشدة..

صوت محمد منير العذب لايزال ينساب ويضيء نقاط العتمة المكتومة في الدواخل، ترتحل معه الروح وتحلق هناك صوب عوالم باذخة من الدهشة والنقاء والحنين (هون يا ليل غربتنا وأبعد يا ليل فرقتنا)..

لمحت كتاب (خارج المكان) لإدوارد سعيد، عند أعلى رف بالمكتبة، وكنت لم أكمل الاطلاع عليه بعد، وقد لمت نفسي كثيراً على عدم اطلاعي على أعماله من قبل..

كنت قد استعرت هذا الكتاب من الصديق عامر، وقد أطلقت عليه لقب فأرة الكتب لكثرة اطلاعه وعشقه للمعرفة، لا تسأله عن كتاب إلا ويقول لك بتواضع.. أعتقد أني اطلعت عليه..

وكان يقول لي بسخرية: كلما تزداد المعرفة يكبر حجم الورطة، وتصبح الحياة أضيق من خرم الإبرة.. قال لي ذات مرة:

كتابات إدوارد سعيد تمنحنا طريق الحكمة ودروب الصبر في هذا المنفى الواسع والشتات المهيب.. وهو محق عندما قال: (إن الحقيقة موجودة في مكان آخر)، (وإننا متورطون بشرط وجودنا الفيزيائي)..

كنت قد تحدثت آخر مرة معه الأسبوع الماضي عبرالتلفون بعد أن لمحت على الشريط الإخباري خبراً عاجلاً عن وفاة الشاعر الفلسطيني محمود درويش، كم هي مؤلمة تلك الأخبار التي تنقلها لنا الفضائيات بحيادية جافة..

وددت أن أواسيه على ذلك الرحيل لعلمي بإعجابه الشديد بتجربة محمود درويش وإنجازاته الشعرية، قال لي بنبرات حزينة: لقد تيتم الشعر بعد هذا الرحيل المر، وليس لنا سوى اقتفاء.. أثر تلك التجربة الشعرية الفريدة.. لقد كان لعامر مقدرة عجيبة على الحفظ، على سبيل المثال، كان يحفظ عدداً كبيراً من قصائد محمود درويش.

أذكر في إحدى المرات السابقة قرأ لي بهدوئه المعتاد وصوته المميز.. قصيدة طباق التي كتبها محمود درويش في رثاء صديقه إدوارد سعيد.. وأكاد أجزم أن درويش صاحب القصيدة نفسه يقرأ من الورق وليس من ذهنه مباشرة..، قال لي عامر مرة إنه أثناء دراسته الجامعية كان يحفظ المقرر من الغلاف إلى الغلاف، ويتذكر الموضوع برقم الصفحة، شيء محير بالفعل.. في آخر المكالمة قدم لي اقتراحاً بتأسيس لقاء شهري يضم ستة أشخاص من تخصصات مختلفة نناقش فيه موضوعاً محدداً من قبل المجموعة، قال لي نحن الآن ثلاثة أنا وأنت وماريكا، ومطلوب من كل واحد إحضار شخص في اللقاء المقبل يوم السبت الأخير من كل شهر.. أخبرته بأن الفكرة راقتني، وسألته هل سيكون اللقاء الأول تعارفياً فقط فأجاب بالإيجاب، لكن لو سمح الوقت ستقدمين أنتِ الموضوع الأول، وأمامك متسع من الوقت للإعداد، قلت له موافقة، وواصلت مازحة، وماذا سنسمي المجموعة رد لي ضاحكاً: «أخوة الفنون»، وأول لقاء سيكون في محرابك الفني إذا لم يكن عندك مانع؟.. قلت له: ما أجمله من اسم ورحبت بأن يكون في شقتي التي أطلق عليها عامر لقب محراب الفن والجمال..

بالفعل تم اللقاء الأول في الموعد المحدد.. أحضر كل منا شخصاً، وأصبح عددنا ستة أشخاص.. كان الاجتماع الأول في شقتي واستمر مدة ساعتين، وكنت قد دعوت صديقة تشكيلية عراقية تدعى سناء قاسم.. أحضرت ماريكا زميل دراسة لها من أوكرانيا اسمه أوليغ يعمل مخرجاً سينمائياً مختصّاً بالأفلام الوثائقية والتاريخية، أما عامر فقد دعا صديقاً له من كوستاريكا يدعى فيكتور، وهو مختص بعلم الآثار والحضارات القديمة.. بعدها قدم كل شخص نبذة مختصرة عن سيرة حياته، أدار اللقاء عامر كونه صاحب المقترح والفكرة واتفقنا على الخطوط العامة، وأن يعقد مرة كل شهر في مكان جديد كنوع من التغيير، وأن يقدم كل شخص موضوعاً مرة كل ستة أشهر.. قدمت لهم في تلك الأمسية ورقة عن الفن في العصور القديمة.. قلت في ذلك اليوم: «لقد عرف الإنسان القديم الرسم واستخدمه كوسيلة تعبير قبل اكتشاف الكتابة بفترة طويلة رغم الإمكانيات البسيطة المتاحة أمامه، واستعان بكل شيء متوافر أمامه حتى يعبر عن نفسه.. لقد كانت الطبيعة خير سند وصديق له في تلك الأزمنة .. الرسوم التي على جدران الكهوف والنقوشات والمنحوتات تبين مدى إبداع وابتكار الإنسان الأول، وكانت تلك الرسوم والمنحوتات تعبر عن خوفه من الأرواح الشريرة، وتبين رغبته في التخلص منها والقضاء عليها..

إن تلك الرسوم ببساطتها كانت تعبر عنه وعن حياته وصراعه من أجل البقاء في هذا الكوكب... ثم تحدثت بعد ذلك عن التلوين، وقلت إنها من أهم الاختراعات التي توصل إليها الإنسان القديم.. كانت الألوان تمثل لهم حالة مزاجية ونفسية، فصار اللون يستخدم لطلاء الجسد حتى يطردوا الأرواح الشريرة التي كانت تحيط بهم حسب معتقداتهم ... يسود رأي شائع حتى وقتنا الحاضر أن الملابس الفاتحة تجلب السعادة والملابس الغامقة تجلب الكآبة.. لذا كان اللون ليس للزينة فقط بل للوقاية وجلب الحظ في كثير من الأحيان... ويمكن القول باختصار إنّ كل الأدوات الفنية التي يستخدمها الفنانون اليوم يعود الفضل في اكتشافها إلى الإنسان الأول»..

استمر النقاش بعد ذلك حول الورقة التي قدمتها مدة ساعتين، وكانت مداخلة وتعقيب فيكتور صديق عامر في غاية الأهمية، حيث عقد مقارنات مع عدد من الحضارات بخصوص فن الرسم والتلوين والنحت والعادات القديمة.. وقال إن حلم حياته هو زيارة دول حوض النيل، وقال إنّ ورقتي التي قدمتها رائعة تستحق الإعجاب وهي السبب في إيقاظ ذلك الحلم القديم من جديد.. وقبل ختام الأمسية قال عامر: نكون شاكرين لو قدمت لنا ماريكا عملاً موسيقياً على شرف هذه الأمسية الأولى.. وبالفعل قدمت لنا ماريكا مقطوعة موسيقية رائعة من تأليفها ونوهت أنها استوحتها من إحدى لوحاتي..

بعد أن أكملت ماريكا العزف صفق لها الحضور، وأشادوا بروعة عزفها العذب وإبداعها الخلاق.. وتم بعد ذلك الاتفاق على تحديد موعد ومكان الجلسة المقبلة في بيت ماريكا، وذكرت أنها ستقدم ورقة عنوانها: لمحات متفرقة عن تاريخ الموسيقى..

طقوس البدايات

تلقيت رسالة عبر هاتفي المحمول هذا الصباح من السيد نديم خان صاحب وكالة العقارات الذي استأجرت منه الشقة..

(أرسلت إليك عدداً من الأعمال الفنية لابنتي الراحلة نسيم، لك أطيب تحياتي)..

وبمجرد أن أنهيت الرسالة فتحت الأيميل وتجولت في لوحاتها ومجسماتها الفنية، وكان شيئاً رائعاً بمعنى الكلمة، ثم بعثت رداً لوالدها شكرته على اشراكي في متعة الاطلاع على أعمال ابنته.. لن أنسى وقفته النبيلة معي في الحصول على السكن.. كنت قد أرهقته بشدة، فقد كانت لدي مواصفات معينة في ذهني، وتفهم طلبي، ويبدو أنه تحمل مشقة البحث تلك لصفات مشتركة بيني وبين ابنته كما أخبرني بعد ذلك..

بعد فترة من البحث المتواصل، وجدنا هذه الشقة المطلة على حديقة واسعة التي يفصلها كيلومترات معدودة عن مطار هيثرو غرب لندن، وهي تتكون من صالة وغرفة نوم ومساحة صغيرة حولتها إلى غرفة رسم، وسرعان ما اعتدت سماع أصوات محركات الطائرات، بل اعتدت المكان وألفته بسرعة كأنني سكنته من قبل، وها قد انقضى عام كامل منذ قدومي إلى هنا...

لوحات نسيم ومجسماتها الفنية حاضرة في ذهني بكثافة، محقّ والدها حين قال إنها تشبهني في كثير من الأشياء.. ولولا الحادث الذي تعرضت له وأودى بحياتها لكانت حاضرة بيننا الآن ترسم بريشتها المعبرة وتحفر بإزميلها الساحرأعمالها ومجسماتها الفنية..

موسيقى هندية حالمة مصحوبة بإيقاعات متفردة تشبه الأصوات الخارجة توّاً من لجة البحر، تجعل الروح تحلق وتسبح في مديات من الحلم والتأمل.. أمسكت بالريشة وشرعت في الرسم ممتطية أجنحة الخيال.. وفي غضون يومين كانت اللوحة مكتملة أسميتها (فتاة من كشمير).. أخبرت والدها بهذا العمل، وقلت له إنني سأهديها إليه، شكرني بصوت مفعم بالحزن والألم لفراقها، وقال ستفرح والدتها وعائلتنا بهديتك القيمة لنا.. عندما شاهد عامر اللوحة أشاد بها وقال لي: لو أتيح لي الوقت سأكتب نصاً مسرحياً عن هذه الفتاة.. وأدهشني بعد ثلاثة أيام حين أخبرني بالهاتف أن النص شبه مكتمل لا ينقصه سوى أن تطلعي عليه..

أتأمل من الشرفة الحديقة المجاورة، تبدو في أبهى صورها وهي مكسوة باللون الأخضر الذي يغطيها من كل الاتجاهات.. عصافير الربيع تتراقص في الفضاء وتتسابق مراهنة على عش دافئ عند نقطة النهاية.. ضباب شفاف أبيض يتصاعد ويعلو على مهل نحو الأفق، أزيز الطائرات المسائية تخترق صمت الليل المعدني وتثقب دهاليز الروح، يبعد الصوت شيئاً فشيئاً ولا يبقى إلا صوت الريح..

الليل يطرز آهاته المثقلة بخيوط الألم الذي يتسرب داخلي ولا يخلصني منه سوى الصبر والنسيان.. في كل ليل متسع من الوحدة، في كل حلم متسع من الأمل.. أشعر بأن جسدي خفيف كالنسمة العابرة وروحي شفافة كزجاج البلور..

حالة هدوء شبه مقدس تعم المحراب في هذا المساء.. ها قد مضى شهر على جلستنا الأولى لأخوة الفنون، والجلسة الثانية اليوم في شقة ماريكا، وكنت قد ذهبت إليها مبكراً لمساعدتها.. شقة ماريكا بسيطة ومرتبة في قمة الأناقة والروعة، والبساطة في حد ذاتها قمة الجمال والرقي.. مناظر وأشكال من بلدان مختلفة حول العالم، أستراليا، الصين، البرازيل والهند.. وقد كان محور النقاش في ذلك اليوم عن تاريخ الموسيقى.. تكلمت ماريكا في البداية بصورة عامة ومستفيضة عن تاريخ الموسيقى، ثم بعد ذلك قالت إنها ستركز في حديثها عن تاريخ الموسيقى في الهند بالتحديد.. قالت في بداية كلمتها إنّ «فن الموسيقى هو من أروع الاكتشافات التي عرفها الإنسان، والموسيقى والفنون بصفة عامة تعبران عن أفراح البشر وأحزانهم، وهما مرآة للواقع وانعكاساته.. لقد ابتكر الإنسان القديم الموسيقى منذ زمن بعيد، ويمكن القول إنه وجد فيها ضالته المنشودة التي كان يبحث عنها؛ لاشك أن أول آلة عرفها الإنسان القديم وكانت متاحة له هي الصوت البشري الذي أنتج النغمات الأولية، لذا ينبغي للآلات الموسيقية التي يصنعها الإنسان أن تحاكي ذلك الحس الإنساني.. تعتبر الموسيقى الهندية في أشكالها الكلاسيكية واحدة من أعرق الأنواع الموسيقية التي ظلت حية حتى عصرنا هذا، وبالرغم من تبدل عناصرها الأساسية إلا أنها تبدو كما كانت قبل ألفي عام أو أكثر.. لقد أكدت العديد من الحفريات والنظريات وجود آلات موسيقية عمرها آلاف السنين وجدت في منطقة تقع في وادي السند، والمتابع للموسيقى الهندية عموماً سوف يلحظ مدى حبهم وتعلقهم بالموسيقى والرقص لدرجة الحب والتبجيل والعبادة، كنوع وطقس احتفالي متوارث عبر الأجيال لقرون عديدة.

كانت الموسيقى والرقص يمارسان في المعابد في تلك الأزمنة القديمة.. ولم تكن ظاهرة بغاء المعابد أو ما يعرف بالبغاء المقدس مقتصرة على الهند فقط.. فقد عرفت الإلهة الأم وارتباطها بعقيدة الخصوبة في كل الحضارات القديمة، تحت مسميات مختلفة (إيزيس، أفروديت، فينوس، بارفاتي، عشتار، دموزي، أناهيد).. كانت عبادة الأم الكبرى منتشرة لدى كل الشعوب القديمة، وتعود أصول تلك العقيدة إلى إيزيس (أنا أم الأشياء جميعاً، سيدة العناصر، وبادئة العوالم)، ومن رحم القارة السمراء أفريقيا خرج معظم أشكال الفنون من موسيقى ومسرح وفنون تشكيلية.. وللموسيقى الأفريقية خصائص مميزة من تقاليد عريقة وطقوس ضاربة في القدم، وتعتبر الآلات الإيقاعية عنصراً هاماً في شكل الغناء والرقص.. ويعتبر الطبل أهم الآلات الموسيقية وقد أبدع الأفارقة في استخدامه..

ذكرت لي هاجر مرة أنها قرأت كتاب المهابهاراتا، ويجدر القول هنا إنه يحتوي على إحالات متكررة إلى الموسيقى والرقص، فهي تدون الحروب القبلية للآريين الهنود التي أصبحت نصاً مقدساً ودراما وأسطورة خالدة تتحدث عن مواجهة الخير للشر.. ذكرت ماريكا في الختام مقولة لأمير خسرو قال فيها: (إنّ الموسيقى الهندية مثل النار التي تلهب القلب والروح)، وذكرت أن ما شجعها على تقديم هذه الورقة كتاب اطلعت عليه وشكل مرجعاً للمعلومات التي قدمتها هو كتاب (موسيقى الهند) لـ «ريجنالد ماسي وجميلة ماسي».. كانت أمسية رائعة بمعنى الكلمة، حيث استفدنا من النقاشات التي دارت بين فيكتور وماريكا.. التي أكدت قبل ختام الجلسة أن الموضوع كبير يستحق جلسة أخرى لكنها طلبت أن نطلع على الكتاب ومن ثم نعود إلى الحديث عنه مرة أخرى إذا سمح الوقت حتى نستوعب بصورة أدق وأعمق»...

بعد انتهاء الأمسية اقترح عامرأن يكون اللقاء المقبل بعد أسبوعين، وذلك بسبب ارتباطه بظروف سفر.. وطلب أن يكون هو المتحدث، واقترح مكاناً مفتوحاً قرب بحيرة يمتاز بالهدوء.. وذلك كنوع من التغيير والتجديد حسب قوله.. وافق الحضورعلى هذا المقترح، قال عامر إنّ ورقته ستكون عن تراجع دور ظاهرة المسرح في العالم..

هالة من الضوء الخفيف تكسو المحراب.. كنت أتأرجح بين اليقظة والحلم والواقع والخيال، راودتني بعض الأفكار المتفرقة لبقية اللوحات التي كان يجب أن أنجزها هذا الأسبوع..

في تلك الأيام شعرت بأنني قريبة من السماء الزرقاء، وكانت الشرفة تربطني كثيراً بالعالم الخارجي، وتشعرني باللهفة لمعرفة الماورائيات لهذا العالم.. لهب الشمع الأحمر يعطر فضاء المحراب برائحة زكية.. جلست بعدها ورسمت لوحة أسميتها (نافذة الأفق)..

كانت تفاصيلها تطل مباشرة على الفضاء الفسيح، وتبدو فيها السماء حاضرة بكثافة، الأزهار مرصوصة على الجانب الأيسر من اللوحة ومنضدة وكرسي على الجانب الأيمن، وطيور بيضاء محلقة في الأفق، الفرشاة والألوان كانتا تخففان بعض الألم الذي كان ينتابني بين الحين والآخر، بالرغم من أنني أشعر بمجيء يوم لن تتمكن فيه يدي من الرسم.

أذكر أن عامراً كان قد أخبرني من قبل عن صديقه مهران الذي حضر لزيارته من مدينة أمستردام.. كانا قد عادا تواً من زيارة للمتحف البريطاني كما أخبراني فيما بعد، وكنت قد التقيتهما في مقهى شهير بوسط المدينة يضم الفنانين والأدباء والحالمين بتغيير العالم نحو غد أفضل.. مقهى الغرباء هكذا كان يسميه عامر، غرباء عن المدينة وغرباء عن العالم بأسره، تسكنهم روح الجنون والتمرد والقلق الدائم، كانوا يعرضون لوحاتهم الفنية في المقهى وأعمالهم الموسيقية والأدبية، وأصبح المكان مشهوراً بفضل وجودهم فيه.. ذكرني المكان بمقهى السيتي كافيه في بيروت الذي كنت قد زرته قبل عدة سنوات..

صاحب المقهى موسيقي مهاجر من أصول شامية يؤمن بأن الفن وحده قادر على خلق حالة حب وسلام وعدل بين البشر، وعلى تخطي كل الحدود المكانية...

كان أمامنا ساعة ونصف ساعة حتى نذهب لحضور افتتاح المعرض الفني لصديقتي الفنانة التشكيلية العراقية سناء.. عندما وصلت كان عامر يحكي لمهران عن موقف أعاد سرده مرة أخرى من البداية بسبب حضوري:

«هذا الموقف حدث لي قبل أكثر من عشر سنوات.. كنت في طريق عودتي إلى البيت.. استوقفني شيخ كبير في السن يرتدي جلباباً أبيض ناصعاً تفوح منه رائحة عطر زكية، وأجزم بأني لم أشم مثلها من قبل طوال حياتي.. بعد أن حياني بوقار طلب مني كيفية الوصول إلى أقرب مسجد.. لهجته ونبرات صوته بدت لي غريبة، وبعد أن وصفت له المسجد شكرني وقال لي:

- تبدو متعباً هل أنت بخير يا بني؟

- كنت مصاباً بحمى، لكنني الآن بأفضل حال..

- شفاك الله من كل مكروه وعافاك.. يبدو من ملامح وجهك أنك تحمل هموماً كثيرة على كاهلك..

ـــ نعم، هذه الحياة سرها غامض، ولانزال نبحث عن سر وجودنا نفسه يا شيخ..

- عليك ألا ترهق نفسك بالكثير من الأسئلة والبحث عن الأماكن البعيدة في حين أن السر موجود فيك وبين يديك وفي داخلك..

لاحظت أثناء حديثي معه أن هناك ظلاً واحداً على الأرض، ظلي أنا أما هو فلا.. قلت لنفسي هل كنت أخاطب شبحاً أو سراباً في وسط هذا النهار الصيفي الساخن، وقبل أن أفكك لغز الظل الذي حيرني وأدهشني أتاني صوته للمرة الأخيرة:

- اسمح لي أن أذهب الآن إلى المسجد، أستودعك الله ..

عندما عدت إلى البيت أحمل معي تفكيراً حائراً وتائهاً عن ذلك الشيخ والحوار الذي دار بيننا.. سألتني أمي هل أنت بخير؟ لقد سألتك ثلاث مرات ولم تجبني..

– لك العتبى يا أمي، كنت سارحاً بعيداً.. وسردت لها ما جرى بالتفصيل الدقيق.. صمتت برهة من الوقت ثم قالت لي:

- من يدري يا بني، قد يكون ذلك الشيخ هو الخضر..

– أنتِ تعلمين يا أمي أنني لست من الأتقياء الصالحين حتى يأتيني الخضر في النهار..

– ضحكت أمي وقالت لي: من يدري يا بني، العلم علم الله، قد يكون أتى ليريك الطريق، لو قررت الذهاب إلى المسجد لتتأكد فلن تجده، وسيقولون لك لم يأتِ شخص بهذه المواصفات إلى هنا..

مهران: بالفعل إنه شيء غريب ومحير يا صاحب، قد تكون والدتك محقة في كلامها..

هاجر: كيف كان يبدو صوته بالتحديد يا عامر؟

عامر: صوته هادئ وله نبرة لم أسمعها من قبل في حياتي كأنها ليست طالعة من كائن بشري.. بعد برهة من الصمت قال عامر لمهران: يمكنك أن تحكي لنا عن ملابسات دخولك المستشفى..

حكى لنا مهران بعد ذلك عن الموقف العجيب الذي حدث له منذ ثلاثة أشهر.. شهق بعمق ثم شرع في الحديث كأنه أراد أن يريح نفسه من العبء الذي كان يحمله في صدره:

«فصل الشتاء كما تعلمون يا أصدقاء من أكثر الشهور التي تصيب المرء بالملل، كنت قد أكملت سنتي النهائية في الجامعة.. النوم راحة للجسم والعقل لكن ليس لأمثالي.. كنت مصاباً في تلك الفترة بأرق.. وكنت أنام بصعوبة وحتى لو نمت فهي ساعات قليلة فقط لم تجد الحبوب المنومة معه نفعاً..

ولا أخفيكم أنني كنت قبلها أعاني حالة قلق ظلت تصاحبني فترة من الزمن، وفي يوم ما كنت جالساً على أريكة الصالة في شقتي بالطابق التاسع في منطقة أوسدورب غرب مدينة أمستردام، أحسست بشيء ما يرتعش داخل أعماقي لعلها روحي.. كان مشهد الغروب الذي أبصرته عبر النافذة لايزال حاضراً في ذاكرتي.. موسيقى عذبة أسمعها ولا أعرف مصدرها..

نسمة هواء عطرة عبرت النافذة، تسربت في أعماقي وسكنت في الحنايا.. أكاد أجزم بأني لم أشتم مثل تلك الرائحة طوال حياتي، شعرت بأنني أقف على طولي وكأن هناك قوة خفية حركتني ودفعتني بقوة نحو النافذة.. في ذلك الحين شعرت بأن جسدي يبدو كالريشة الصغيرة العالقة في

الهواء الطلق، خيط دم دافئ سال من أنفي، وأضحت يدي اليمنى تؤلمني بشدة، وبعدها بقليل، وجدت نفسي في المستشفى..

قال لي الطبيب: لقد نجوت من الموت بأعجوبة.. بعد أن تعلقت في شجرة بيدك اليمنى وكسرت ترقوتك، لكنها إصابات خفيفة مقارنة بحالة القفز من ذلك العلو الشاهق، ثم قال لي والابتسامة تعلو وجهه: يبدو أن القوة الخفية نفسها التي ذكرت أنها دفعتك هي التي أنقذت حياتك أيضاً...

حضرت الممرضة السورينامية التي تعاين حالتي.. كانت تعاملني بلطف زائد وقليل من الحذر في بعض الأحيان، وذلك خلال حرصها على إغلاق النافذة.. قلت لها بابتسامة: لو أردت أن أفعلها مرة أخرى لن تمنعني قوة في هذا العالم البغيض، اعتذرت لي، فرددت قائلاً لا داعي للاعتذار، إني أمزح معك، وأضفت لها بضحكة ساخرة:

- المرة القادمة سأبتكر لي طريقة جديدة ومضمونة..

- أتمنى أن تجتاز هذه الحالة، فالحياة يا صديق – اسمح لي أن أناديك صديقي - رغم بؤسها تستحق أن تعاش، بالمناسبة جارتك في البناية هي التي بلغت الإسعاف.. بعد أن شاهدتك معلقاً في غصن الشجرة أمام نافذتها وقد كانت تأتي لزيارتك كل يوم..

- دعيني أقابلها في المرة المقبلة كي أشكرها...

- أية مرة مقبلة، إنها الآن موجودة في الخارج..

دخلت بعد ذلك فتاة في منتصف العشرينيات حيتني بابتسامة عذبة مرسومة في ملامح وجهها الصبيح.. رددت على التحية وشكرتها على موقفها معي ومتابعتها لحالتي المرضية.. حينئذ ردّدت أنها لم تقم سوى بالواجب..

تلك الفتاة، لا أخفيك، قد غيرت حياتي وأقنعتني بعدم المحاولة مرة أخرى وقالت لي: امنحني مدة سنة إذا لم يطرأ تغيير سوف نقفز معاً..

سألته مقاطعة: هل تعتقد أنها كانت جادة في كلامها أم أنه نوع من المجاملة ؟

بالتأكيد كانت جادة، لقد كان في عينيها إصرار وتحدٍ لما تقول..

وذكرتني أننا التقينا من قبل عندما جاءت لتسكن في المبنى لأول مرة، وأنني ساعدتها على حمل الأمتعة معها...

اعتذرت لها عن ذاكرتي المتعبة التي أدمنت النسيان.. ضحكت وقالت لي: لا عليك، وقبل أن تغادر قبلت جبيني وانصرفت وهمست لي حمداً لله على سلامتك.. غادرت وتركت خلفها طيفها المشرق ورائحة أنفاسها التي سكبتها وغرستها في دواخلي.

فكرت في المصادفة العجيبة التي جمعتني بها وقلت لنفسي: هل كان عليّ أن أعرض حياتي للموت حتى ألتقي هذه الفتاة المدهشة؟ هكذا الحياة يا أصدقاء مصادفة تحيي، وأخرى تميت، أليس كذلك..؟

قال له عامر ضاحكاً: ومصادفة تجعلك معلقاً على غصن شجرة، وتنقذك بأعجوبة، وخرجت رابحاً من هذه القفزة العالية..

نعم أنت محق يا صاحبي.. وواصل مهران الحديث:

منذ ذلك اليوم ارتبطنا معاً برباط أبدي، ثمة أشخاص يظهرون في حياة الإنسان في وقت متأخر، ويتمنى لو كان التفاهم منذ زمن بعيد.. هل تتفقين معي يا هاجر..؟

باغتني بسؤاله هذا، وأعادني إلى المشهد بعد أن سرحت برهة من الوقت:

- معك حق، رب مصادفة خير من ألف ميعاد كما يقولون...

ذهبنا بعد ذلك إلى معرض الصديقة سناء التي رحبت بنا بشدة، وقمنا بصحبتها بجولة على أروقة المعرض، أشاد عامر ومهران بأسلوب سناء وأعمالها المعبرة.. واجتمعنا بعد ذلك في صالة أخرى تم فيها نقاش حول المعرض، وأديرت الندوة من قبل صديق مشترك، ثم تحدث بعض النقاد والفنانين، وعقبت في الأخير سناء بكلمة شاملة، وأجابت على أسئلة الحاضرين.

خرجنا بعد ذلك وتناولنا العشاء في مطعم لبناني قرب محطة بادنغتون ثم افترقنا.

ليل مفتوح على مصراعيه كغيمة هاربة.. تتسكع في أرصفة الفضاء الفسيح.. لا أدري هل أنا هنا أم هناك؟ ضوء القمر الفضي يملأ جوف السماء من كل الجهات، النجوم مبعثرة في الفضاء تتألق ببهاء أنيق، ضوء ناعم يتمدد في أقصى ناصية الروح، قالت الجدران لنفسها: النور خديعة كبرى.. العتمة هي الحقيقة المطلقة.. هل أصبحت لا أطيق النور وأشعر بأنني حرة وطليقة في العتمة، وأحلم بالتجوال في مناطق مأهولة بالظلام والعزلة ؟؟

هل كان عليّ ترويض نفسي على طقوس الصبر والتحمل لأن الحياة في كثير من الأحيان رحلة معاناة وألم، وسلسلة من الخيبات المتلاحقة؟.. الوجع لم يتوقف من إرسال إشاراته خلسة إلى جسدي.. هكذا كانت تقول ذات تائهة عند مشارف حلم بعيد.. عادت توّاً من سفر شاق بعد أن قفز بها المرض لعقود زمنية طويلة من العمر، وأصبحت كأنها إنسانة أخرى تبحث عن روحها في دفتر الغياب..

انتابني حنين جارف تلك اللحظة إلى الوطن وإلى مشهد النيل هناك في الصباح الباكر، أكاد أشم من البعيد رائحة تراب النهر والطين الذي كنا نلعب به أيام الطفولة.. زقزقة العصافير ومشاهدة الفراشات الملونة ومراقبة النجوم الساطعة في الأفق.. تسللت ألفة غريبة وحنين دفاق تسرب داخل روحي مثل الدماء التي تسري في الجسد.. جالت في الخاطر صور عديدة لرائحة البيوت المسكونة بطعم الشوق واللهفة...

شعرت بأنني معلقة في الفضاء الواسع ومحاطة بتلك الذكريات الرائعة.. وجدت نفسي أمسك الفرشاة وأشرع في رسم لوحة جديدة مستوحاة من تلك الأجواء الساحرة هناك، كنت أرسم وصوت محمد منير وأغانيه المسكونة بطعم الحنين والحب والأزمنة الجميلة ترويني حتى الثمالة.. قال لي عامر ذات مرة: إن أغاني محمد منير مثل أحاجي الجدات لا يمل المرء سماعها على الإطلاق، وافقته على كلامه وقلت له إن أغاني محمد منير تغمرني بحالة نشوة وفرح مدهش.. أكملت اللوحة في ثلاثة أيام وأسميتها «تعويذة النيل».. كانت لوحة كبيرة الحجم زينت بها صدر المحراب إلى حين موعد التسليم.. كانت نظراتي مركزة على اللوحة المسكوب فيها ضوء الفجر الحالم المنبعث من النافذة حيث تبدو أشجار النخيل الوارفة وهي تلقي بظلالها العالية على صفحة النهر، وصبية صغيرة تحمل جرة ماء على رأسها..

عدت تواً من السينما بعد مشاهدتي أحد الأفلام الجديدة، رغم الزخم الكبير والإعلان إلا أنه لم يرقني مثل فيلم عطر الذي جعلني أستعيد ذاكرة الروائح البعيدة، رائحة الطفولة وحضن أمي، سألت نفسي هل رائحة البشر مثل البصمات؟ هل لكل شخص رائحة معينة...

رائحة الذكريات تظل حاضرة حتى بعد موت صاحبها نفسه.. قبل خروجي من المنزل عند الصباح وجدت رسالة، وعندما فتحتها كانت عبارة عن تذكرة دخول إلى حفلة الفرقة التي تعمل بها ماريكا؛ كم هي إنسانة رائعة ماريكا هذه.. دوماً تدهشني بالمفاجآت.. اتصلت بها وشكرتها على هديتها القيمة، وقلت لها: سأذهب اليوم لأحجز تذكرة السفر..

تلقيت اتصالاً من عامر الذي أكد موعد الظهر في مقهى كوستا بمجمع وايتليس.. كان الطقس بديعاً في ذلك الصباح الربيعي.. وبدت مدينة الضباب كأنها مغسولة بمياة المطر الذي هطل مساء أمس، تفوح رائحة زكية من الأرض تنثر عبق عبيرها الجميل في أرجاء الفضاء الفسيح، كنت أشم تلك الرائحة وأتأمل ذلك المشهد كأني أراه لأول مرة..

وصلت إلى المقهى قبل خمس دقائق من الموعد.. وجدت عامراً حاضراً فهو كعادته دقيق في مواعيده.. تحدثنا عن أشياء كثيرة في ذلك اليوم، يتكلم بكل هدوء كعادته.. حكى لي عن مواقف عديدة بالتفاصيل الدقيقة، قلت لنفسي: هل يعقل أن أقرب الأصحاب لا نعرف عنهم الكثير من الأشياء؟ بالرغم من علاقتنا وصداقتنا الطويلة بدوت كأني أعرفه لأول مرة..

حكى لي عن والده قائلاً:

- كان والدي شخصاً بوهيمياً بامتياز.. وأتذكر الآن، بكل وضوح، أنه كان يكتب قصائد شعرية طويلة.. وبعد أن تكتمل يقوم بتمزيقها ويرميها في سلة المهملات وكأن شيئاً لم يكن، وكان له خط جميل لا أزال أذكره، كان يكتب كثيراً بمعدل ثلاث إلى خمس قصائد في الأسبوع، ويكتب القصيدة الواحدة عدة مرات حتى يستقرعند شكل واحد.. ظلت تلك الظاهرة معه حتى رحل عن الدنيا، ولا أخفيك، كان ينتابني فضول شديد لمعرفة ما يكتب.. كنت وقتئذ في الصف الثالث من المرحلة الابتدائية، وفي يوم من الأيام حققت رغبتي وجمعت ما كان يمزقه بصعوبة..

قرأت القصيدة، ولا أخفيك استعصى علي أن أستوعبها من أول مرة لصغر سني وهشاشة تجربتي في ذلك الوقت، وأذكر أن ضميري أنبني للاطلاع عليها دون علمه، وحفظتها في ذهني سنوات طويلة.. وبلا مجاملة أقول إنّ قصائده كانت ذات طابع متفرد، ولها نكهة مميزة تحمل بصمته ولها أيضاً بعد فلسفي وصوفي عميق..

كان عدد من أصدقائه الشعراء يستشيرونه في قصائدهم قبل نشرها، ويأخذون بنصائحه بلا تردد حتى لو طلب منهم تمزيقها أو إعادة صياغتها..

قلت له: هل سألت والدك يوماً عن سبب تمزيقه القصائد.. أجاب بالنفي وواصل: شيء في أعماقي حرضني على عدم سؤاله.. قلت له: إنه شيء غريب ومدهش بالفعل، ما كان يقوم به والدك، ولا أحد يمكنه تفسير هذا الشيء إلا هو نفسه.. فأجاب: أعتقد أن تصرفه هذا نوع من إنكار الذات لدرجة التفاني.. كان والدي يقول إن العمل الجيد يفرض نفسه، وستظهر أعمالي من خلال أبنائي لأنني موجود فيهم وفي حياتهم المقبلة.. أعطيتهم كلمة السر دون أن أبوح بها لهم صراحة، هكذا علمنا جدنا الأكبر الذي أخذها من أسلافه الأوائل، وظلت محفوظة بين العائلة قروناً طويلة.

طلبنا معاً فنجان قهوة، ولم أذكر كم فنجان قهوة احتسينا في ذلك اليوم، ينتابني شعور غريب بأن هذا اللقاء سيكون الأخير بيننا، ليت حدسي يكذبني هذه المرة..

الوقت يمضي ببطء شديد وكأن عجلة الزمن توقفت عن الدوران.. في تلك الأثناء كان عامر يقول لي: منذ أن أبصرت عيناي هذه الحياة كانت مشاهد الغياب والرحيل قريبة منا، وقد كان الموت حاضراً في حياتنا عند كل ثانية، لذا أجد نفسي متصالحاً معه نوعاً ما..

كان بيتنا مواجهاً للمقابر ومشاهد الدفن شبه اليومي لم تغب عن أعيننا، وذاكرتنا على الإطلاق حتى لو سافرنا تظل راسخة في الأذهان، وتلاحقنا سيرة الرحيل مثلما تلاحق الظلال أصحابها، ووجدنا أنفسنا متصالحين مع الموت أكثر من تصالحنا مع الحياة..

فضيلة الموت تكمن في الغموض والكشف والتوق إلى عوالم المجهول واللامرئي، فكرة الموت في ذاتها شيء غامض وساحر.

لاشك في أنها توسع مدارك الإنسان ورؤيته للعالم وتجعله يتبصر قدره المحتوم بكل وضوح.. ما أروع الأشياء المجهولة والغامضة التي لم نطرق بابها بعد.. في هذه اللحظة قلت لنفسي من الذي يتكلم الآن أنا أم أنت يا عامر؟ إنه يقول ما يجول في خاطري تماماً.. قلت له عندما كنا نقوم بزيارة المقابر في الأعياد.. كنت أجري بفرح وأختبىء خلف شواهد الضرائح.. كانت أمي تقول لي: لا تجري بعيداً من هنا.. وكانت تستغرب سلوكي وتصالحي مع ذلك المكان.. قلت له بأن هناك أشياء في هذا العالم عصية على الفهم والإدراك والتصديق.. هل تذكر عندما سألتني ذات مرة عن هذا العقد؟

أجاب بالإيجاب وواصل: قلت لك إن البنات يعلقن الذهب على صدورهن، وأنتِ تعلقين حفنة من التراب على صدرك، ما أجملك يا صديقة..

أجبتك وقتئذ حتى لا تغرينا الدنيا بنعيمها الزائل يا صاحب.. سأخبرك بحادثة عجيبة جرت معي مرتبطة بذلك العقد لم أقلها لأي شخص، في مرة من المرات كنت بإجازة في السودان، وصودف أن توفيت جدتي فحزنت عليها بشدة.. عند عودتي من هناك حلمت بها، أخبرتني بعض حكاياتها التي كانت تحكيها لنا أيام الطفولة، كنا جالسين بالقرب من ضفة النهر، وشكلنا ثلاثياً رائعاً، وقبل أن تذهب ألبستني هذا العقد وانصرفت مثل طيف جميل..

في الصباح الباكر عندما أفقت من النوم.. وجدت هذا العقد معلقاً في صدري وهو نفسه الذي أهدته إلي جدتي في الحلم وبداخله حفنة من طمي النهر، منذ ذلك اليوم ظللت محتفظة به ألبسه كقلادة على صدري ويرافقني في كل مكان.. مثل الوشم المرسوم على الجسد أستمد منه سيرتها وذاكرة النهر وترابه الذي سنعود إليه في يوم ما، اندهش عامر وقال لي: هذه ظاهرة عجيبة، لا يستطيع العلم نفسه أن يفسرها..

- معك حق، في هذا العالم هناك أسئلة كثيرة لن يستطيع الإنسان أن يجد لها أجوبة حتى يعبر إلى الضفة الأخرى.. لذا ستظل رحلة البحث واللهاث وراء الأجوبة مستمرة بلا نهاية حتى نتوسد التراب، وتلك هي الحقيقة الوحيدة الثابتة التي لا تقبل الشك..

حكى لي عامرعن شاب يسكن في منطقتهم فقد عقله منذ أكثر من عقدين من الزمان، وعندما سألته عن سبب فقدانه عقله قال لي:

- كان في طريق عودته إلى الوطن بعد زيارة لمصرعلى ظهر سفينة، وعند عرض البحر تعرضت السفينة لحريق كبير، راح ضحيته كل ركاب السفينة ما عدا ذلك الشاب الذي نجا بأعجوبة..

عندما سمع الصراخ الشديد قفز من نافذته إلى الماء مباشرة، وكان يجيد السباحة.. حتى تولى رعايته بعض الصيادين.. وقد عثر عليه أولئك الذين يقيمون في بيوت متاخمة للنهر تقع في أقصى شمال السودان، وتمكنوا بصعوبة من معرفة هويته..

أصبح يعيش حياة سكون شبه دائم من صمت إلى صمت، ومن عزلة إلى عزلة وشبه فاقد للذاكرة.. إلى أن تعرف إليه مصادفة أحد سكان منطقتنا من التجار أثناء مروره في تلك القرية النائية... منذ تلك الحادثة لم يعد ذاك الشخص الذي نعرفه، وهو لايزال يعيش تلك اللحظات الرهيبة، لحظات حريق السفينة، وفي بعض الأحيان يصرخ بأعلى صوته: النار النار.. وسبب زيارته لمصر كانت من أجل حضور مولد السيد البدوي بمدينة طنطا، كان مسكوناً بعشق الصوفية يذهب لزيارة أعلام الطرق الصوفية في كل الأمكنة داخل البلاد وخارجها..

– كرامة الأسياد كما يقولون أنقذته من تلك الحادثة..

الشيء المثير للعجب أنه ظهر بعد ستة أشهر من ذلك الحادث، وأقام له أهله عزاءً طويلاً بسبب ذلك الغياب المهيب.. على غير ما تجري العادة وذلك لظروف موته العجيبة كما كانوا يعتقدون، إلا أن ظهوره بدون سابق إنذار أصابهم بالذهول والحيرة.. لِذا أطلق عليه أهل الحي سراً بينهم لقب حاج موت، بينما أطلق عليه آخرون لقب محروس، ولهذا اللقب قصة قديمة لا يعرفها إلا القليلون من أهل الحي.. تقول القصة إن هذا الشاب كان لفترة من الزمان ينتمي إلى جماعة صوفية، وأصبح من مريدي الشيخ.. وفي إحدى المرات أراد أن يحضر إبريق الماء للشيخ لصلاة المغرب لكنه لم يجد نقطة ماء واحدة في المنزل..

وعندما حان موعد الصلاة ذهب وأخبر الشيخ بأن الماء قد نفد من الخلوة.. ابتسم الشيخ ابتسامة خفيفة ثم قال له: ضع الإبريق تحت الماسورة وأغمض عينيك مدة دقيقة واحدة.

عندما فتح عينيه وجد الإبريق مملوءاً بالمياه حتى سالت على الأرض.. والشيخ منتصباً في مكانه ينظر إليه.. حينئذ صرخ بأعلى صوته يا الله يا الله!

يقول أهل الحي إن الشيخ أراد أن يريه علامة من علاماته.. دعا له الشيخ بأن يبعد الله عنه كل مكروه ويحرسه من كل أذى، هكذا يعتقد الكثيرون أنه محصن ببركات الشيخ التي تتبعه في كل مكان مثل ظله.. ولم يستغربوا خروجه حياً من ظهر سفينة مات كل ركابها سواه.. آخرون يقولون إنه رجل بركة ولا يحتاج إلى بركات الشيخ نفسه..

سألني عامرعن مجنون منطقتنا الذي حكيت له عنه مرة، دون الإسهاب في التفاصيل، وذكرت له قصته مع شقيقي الأكبر عندما ساعده على حل مسألة رياضية في المتتاليات الهندسية، استعصى حلها على الطلبة في الصف، وعندما أخبرالأستاذ بأن شخصاً ينام في الشارع هو من ساعده على حل المسألة اندهش الأستاذ... وذكر آخرون من الحي أنه ساعدهم على شرح كثير من المواد العلمية وبسّطها لهم بأسلوب سلس وسهل...

تروي قصص كثيرة عنه من أهل الحي، ولا أحد يعلم حتى الآن مدى مصداقيتها.. كان له طبع هادئ لدرجة بعيدة وكان منطوياً على نفسه قلما يسمع صوته إلا فيما ندر، منذ أن أبصرنا الحياة رأيناه يسكن في الشارع عند تلك الكنبة الصغيرة، فهي عالمه الوحيد والمفضل..

يقول عنه أهل الحي إنه كان أذكى الطلبة في المدرسة، وبعد تخرجه في الجامعة سافر إلى ألمانيا وأكمل دراساته العليا في علم الفيزياء في جامعة برلين..

أما سبب جنونه فهو لغز كبير ومحير لدرجة أنه لم يستطع أحد حتى الآن أن يفك شفرته، وأصبح حديثاً ذا شجون وشائقاً لأصحاب الخيال الخصب من أهل الحي الذين يودون معرفة كل شيء ويتحدثون عن أي شيء؛ تقول إحدى الروايات غير الموثوق بها وغير المؤكدة لكنها شائعة بكثرة:

إن امرأة في غاية الحُسن والجمال أُعجبت به أثناء فترة دراسته في ألمانيا، وطلبت منه أن يتزوجها لكنه رفض.. حاولت وأعادت طلبها عدة مرات إلا أنه رفض بشِدة، فما كان منها إلا أن سحرته، ومنذ تلك اللحظة عاد إلى الوطن على تلك الحالة، ولم يعد ذاك الشخص قطّ، لا أحد يستطيع تأكيد أو نفي هذه القصة حتى الآن.. قال عامر: بالفعل شيء يحير لكن غياب الحقيقة وعدم اليقين يولدان الكثير من الأسئلة، سرح مع نفسه وقال بصوت منخفض:

- لماذا لم يكتب المؤرخون عن تاريخ الجنون بدلاً من توثيق الهزائم والنكسات واحدة تلو الأخرى؟

- بالفعل هناك كتاب سمعت عنه منذ فترة.. عنوانه «موجز تاريخ الجنون» للمؤرخ البريطاني روي بوتر..

- لم أطلع عليه بعد لكنني قرأت مقالات متفرقة عن كتاب ميشيل فوكو «تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي».. لقد كانت غايته من ذلك الكتاب أن يخرج المجانين والمهمشين من عزلتهم التي سجنوا فيها ليعطيهم الحق في الوجود والحق في الكلام..

- بعض ممن كانوا يدرسون معه قالوا: إن سبب جنونه هو ذكاؤه الزائد عن الحد الطبيعي، وأن تخصصه النادر في علم الفيزياء قد يكون سبب فقدان عقله.. أحد الأقارب كان رفيقه في المدرسة أكد أنه كان بالفعل يتمتع بنسبة ذكاء عالية، وأنه كان يحرز الدرجة الكاملة في كل المواد العلمية، لدرجة أن الأساتذة كانوا يستعينون به في كثير من المسائل..

لاحظ أهل الحي شيئاً غريباً عنه أن أحداً لم يره يأكل أو يشرب، جزموا أنه لم يكن يبرح مكانه أسبوعاً كاملاً في بعض الأحيان، وكانوا كثيراً ما يسألون أنفسهم ويتوقون إلى معرفة السر، ورغم بحثهم الدؤوب وتلصصهم إلا أنهم لم يصلوا إلى نتيجة أو إجابة قاطعة ترضي فضولهم، وظلت أسئلتهم الحائرة عالقة في أذهانهم وقتاً طويلاً..

كان كثيراً ما يتجاذب أهل الحي أطراف الحديث معه.. هم يثرثرون وهو يستمع إليهم ونادراً ما يتكلم.. بعض المشاهد في التلفاز تبث صور الحروب والقتل في أنحاء متفرقة من العالم.. قال عامر بعد فترة من التأمل:

- ألا تحفظون قليلاً من الشعر كي توقفوا المذبحة؟

- نعم يا صديقي، محق درويش عندما قال ذلك.. الشعر وحده قادرعلى انتشال البشرية من ورطتها الكبيرة لكن.. من يسمعك؟ في هذا العالم الذي لا يسمع سوى صوت الرصاص..

أليس من الأجدى إضافة الموسيقى والرسم والشعر إلى مناهجنا التعليمية.. بدل مواد التلقين الفاشلة التي لم تأتِ أُكلها بفائدة تذكر..

طلبنا من النادل لطفاً بنا تغيير القناة.. لم يخيب ظننا ولبى طلبنا بكل ذوق وقال معلقاً:

– معكما حق بكل تأكيد.. أسخف شيء في هذا العالم هذه الحروب التي تحصد الأبرياء من دون ذنب.

قلت له: هذه المشاهد المؤلمة تجعلنا نخجل من أنفسنا ومن إنسانيتنا؟

- لقد فقد هذا العالم ضميره وأخلاقه وإنسانيته..

- لماذا كل هذه الدماء والحروب؟

- لا أريد أن أقول إنها سُنة الحياة.. بل هي ورطة الإنسان ومأزقه الوجودي الكبير..

كنا نسمع عن هولاكو وجنكيزخان.. أما الآن فقد شهدنا من هم أسوأ منهما ألف مرة..

سرح عامر برهة من الوقت مع نفسه ثم قال لي:

تحدثت قبل يومين مع صديق لي في السودان.. أخبرني بحادثة وفاة شخص أعرفه من منطقتنا وجدوا جسده طافحاً في النيل بعد رحلة بحث مضنية عنه استمرت ثلاثة أيام.. قال لي صاحبي:

لقد كان منظر خروج الجثة مفجعاً ومؤثراً جداً عندما أخرجت من عرض النهر.. بكاه الناس كما لم يبكوا من قبل طوال حياتهم.. سيحتاجون إلى عقود من الزمن حتى يمحوا ذلك المشهد التراجيدي من مخيلتهم.. كل شيء يبدو حزيناً وبائساً في الحي لأجل غير مسمّى.. هذه الحياة ليس لديها أمان أو صاحب.. ختم صديقي حديثه معي بكلمات مؤثرة: لا نملك إلا الصبر يا صاحب أمام هذا الحدث المفجع.. بعد أن غاب عنا الذي كان يزرع البهجة والمسرة والصبر في نفوسنا.. وواصل عامر: بعد انتهاء مراسم العزاء بيومين وجد أهله ورقة صغيرة بخط يده.. كُتبت عليها كلمات بسيطة لكنها عميقة في محتواها، وحلت لهم لغز الوفاة المفقود «لقد مللت هذه الحياة».. تخيلي لقد اختصر حياة امتدت أكثر من خمسة عقود بهذه الكلمات البسيطة.. وكأن الحياة بطولها وعرضها لا تحتاج إلى المزيد من البوح والثرثرة الفارغة.. وذكر شهود عيان من الذين يمارسون حرفة الصيد على النيل بأنهم شاهدوه يطوف قبل عدة أيام في المكان نفسه الذي غرق فيه.. واختار توقيتاً مبكراً عند الصباح حتى لا يمنعه أحد من تنفيذ مخططه..

وأصدقك القول يا صديقة آخر شخص كنت أتوقعه أن ينتحر.. هو ذلك الشخص لأنه كان اجتماعياً ومحباً للحياة، قال لنا مرة بسخريته المعهودة بعد جلسة نقاش محتدمة:

ألا تملكون قليلاً من روح الفكاهة والدعابة حتى تغيروا هذا الجوالمحبط.. لكن يبدو أنه كان متأزماً ويتمزق بشدة من الداخل... سألته عن طبيعة عمله، قال لي:

- كان يعمل موظفاً في مصلحة النقل النهري، واسِع الاطلاع والمعرفة لا سيما التاريخ والحضارات القديمة والأدب، كانت له مكتبة كبيرة في بيته وكنا كثيراً ما نستعير منه بعض الكتب والمجلات الأدبية.. ويقصده أهل الحي لحل خلافاتهم الشائكة والمعقدة التي لا تنتهي وذلك لحكمته ورجاحة عقله.. إضافة إلى ذلك كان له موهبة العزف على آلة الساكسفون وهو عاشق للموسيقى والفنون بصفة عامة.. وأذكر أنني سألته مرة لماذا اختار آلة الساكسفون بالتحديد؟.. أجابني بهدوئه

المعتاد إن الآلة هي التي اختارته وهو لم يختر العزف عليها.. قال لي ذات مرة أعتقد أن الموسيقى هي أجمل شيء عرفه الإنسان في هذه الحياة... وكان عزفه بديعاً وساحراً بمعنى الكلمة.. أقل ما يقال إنه عازف محترف... وأكد لي أحد الأصحاب أنه عزف لهم قبل أسبوع من وفاته بحس عالٍ مفعم بالحزن يقطع القلب.. لدرجة أنه قال بينه وبين نفسه: يبدو أننا لن نسمع عزفه بعد اليوم وبالفعل صدق حدسه.. هل كان يودع الساكسفون آلته المحبوبة لديه، أم يودع الأصدقاء، أم يودع الحياة برمتها؟

كان يشرب كثيراً، وسألته ذات مرة لماذا تشرب بشراهة؟ قال لي: لكي أقتل الأحزان التي بداخلي.. لكن يبدو أن أحزانه غير المعلنة هي التي انتصرت عليه في نهاية المطاف...

هكذا هي منطقتنا يا صديقة، يسكنها أناس بسطاء مدهشون يعيشون الحياة بفلسفة خاصة من نسج رؤاهم وأحلامهم.. أي واحد فيهم يصلح أن يكون بطلاً لرواية لم تكتب بعد..

- هناك إحصاءات غير رسمية تقول إن نسب الانتحار عالية وفي تصاعد هذا العام على مستوى العالم.. رد عامر بصوت حماسي لا يخلو من الجدية:

- المجد لأولئك المسكونين بلهفة الإبحار إلى الضفة الأخرى.. وواصل عامر:

- إضافة إلى ذلك كان سكان منطقتنا بارعين في منح الألقاب.. التي تظل مع أصحابها طول العمرعلى سبيل المثال.. كان هناك شخص سكن تواً في الحي، وقلما كان يظهر.. يكثر ظهوره بصفة خاصة في فصل الخريف حاملاً معه أدوات الحفر لمساعدة الناس، ثم يختفي بعد ذلك فترة ويظهر في الفصل المقبل، أطلق عليه شباب الحي لقب رجل الخريف، ولازمه هذا اللقب عقوداً طويلة.

- بالفعل إنهم أناس مدهشون وبارعون في منح الألقاب..

أثناء حديثنا كان عامر يكتب في إحدى صفحات دفتري الأزرق.. الموضوع فوق الطاولة، وقرأت فيما بعد بعضاً مما كتبه:

«الطرق التي نسلكها في حياتنا قد لا نعبرها مرة أخرى..

الأحلام التي نراها في المنام قد لا نستطيع حفظها في ذاكرتنا المنهكة...

الحب الذي نبحث عنه طوال العمر لا وجود له إلا في مخيلتنا الحالمة..

الحزن الذي يغلف أعماقنا بكثافة نسعى جاهدين طوال العمر للتأقلم معه لكن دون فائدة..

لا إكراه في العشق فقد تبين الحب من الزيف..

بين العقل والجنون مساحة فارهة، حافلة بالخيبات والأسى والضجر..

أيها الناس لكم عقلكم ولي جنوني، ولكم يقينكم ولي ظنوني..»

وعند أسفل الصفحة كتب: «لقد شبعنا من الظلم والألم، وكل ما نبحث عنه في هذه الحياة الصاخبة هو حالة حرية وحب كاملة الدسم.. أيها الوطن البعيد بيني وبينك مسافة من الحنين والشوق والوجع والجنون»..

ووجدت في أوراقه التي سلمني إيّاها نماذج متفرقة من القصص القصيرة:

دروب الصبر

عند طريق منحنٍ لا يفضي إلى أيّ مكان، قابلت شخصاً عابراً يبدو الأسى على وجهه.. نظر إلي برهة من الوقت ثم قال لي بلهجة لا تخلو من الجدية:

- هل يمكنك أن تعيرني قليلاً من صبرك لأقتل به شبح الكآبة في داخلي؟

قلت له بقليل من الدهشة:

- عذراً يا رفيق الوجع، لم تترك لنا هذه الحياة كثيراً من الصبر حتى نوزعه على الطرقات .

ترميم داخلي

كان بصدد ترميم داخلي لذاته المتعبة من أبجديات المنافي ،

ووجوه العابرين في طرقات المدن التائهة، وقبل أن يكتمل

مشروع الترميم تصدع أساس الروح وانهار الجسد المنهك

بالرحيل بغتة بلا استئذان..

ألوان هاربة

أمسك بريشته على مهل وشرع في رسم لوحة من وحي إلهامه..

وقبل أن يبدأ بنثر أفكاره هربت الألوان من بين يديه محلقة في الفضاء، رسمت ريشته في الفراغ الفسيح لوحة سوريالية الأبعاد:

حشُود من الأطفال الصغار يرتدون أجنحة بيضاء.. يمتطون عربات من الرمال الناعمة، يسابقون بفرح ونشوة الغيوم والسحب العابرة:

ابتسم لنفسه وحدق إلى دهاليز خياله الخصب المسكون بأزمنة الطفولة الأولى بكل تفاصيلها البريئة: (بعد كل هذا العمر لم تدهشنا سوى ألوان الطفولة).

أوهام الغربة

قال لطبيبه النفسي:

- حالتي الصحية جيدة الآن وضغطي مستقر لم يرتفع بعد مثلما ترتفع أسعار الأراضي في وطني بسرعة الصاروخ.. وأعتقد أنني شفيت من مرض الحنين والعودة إلى الوطن، لكن يبدو أنني أدمنت الغياب بوجودي هنا ضيفاً - ثقيلاً - في بلادكم، وامتدت فترة ضيافتي لأربعة عقود من الزمن.. فكرة أن يتصالح المرء مع مكان جديد ويعود إلى موطنه الأصلي بعد كل هذا الانقطاع أمر ليس بالسهل، هل من وصفة - سحرية - يا دكتور لحل هذا اللغز؟

- أربعة عقود في هذا البلد ولاتزال تحسب نفسك غريباً؟

- المعضلة يا سيدي أن الإنسان غريب عن كل العالم برمته..

ألا يراودك هذا الإحساس بعض الأحيان؟..

من الذي يسأل ويدير دفة الحوار هنا؟ ما هذه اللخبطة !

هكذا قال الطبيب في سره وبنظرة واثقة قال:

- أعتقد أننا بحاجة إلى عدد من الجلسات مرة أخرى..

جمال المكان والموسيقى الساحرة في الخلفية.. خففا عن جسدي التعب ومنحاني أوقاتاً من الحلم والنقاء والبراءة.. ضوء خافت ينبعث في المقهى، ومناظر ولوحات مرصوصة بلمحة فنية عالية، كنت مأخوذة بسحر المكان وروعة الأشياء وطعم الألفة والحنين، لو أتيح لي الزمن لنحت تمثالاً وأهديته إلى هذه المدينة.. نسمة هواء منعشة تدخل من مدخل المقهى بين الحين والآخر مصحوبة بأصوات المارة وصخب الباعة ولكنات أفواج السياح وصياحهم بلغاتهم المختلفة في تلك المنطقة التي تعج بالحركة، كنت أعشق التسكع والمشي في الأمسيات الربيعية في وسط مدينة لندن.. لمحت بعض قطرات المطر التي هطلت في الخارج خلف زجاج المقهى الملون، ضوء المغيب يهز الوجدان ويحرك الدواخل، في خِضم موجة أفكاري الكثيفة وتأملاتي تلك أعادني صوت عامر إلى عالم الواقع:

- المطر مثل الموسيقى كلاهما مسكونان بالسعادة والحزن.. وبالفرح والكآبة، ويصيبان المرء بحنين يجعل دموع العين تطفر بغزارة.

- يا الله ما أجمل ما وصفت يا صاحبي.. يبدو أنك تكتب نصاً هذه الأيام؟

- كعادتك لماحة يا صديقتي.. أكتب نصاً مسرحياً هذه الأيام وهو على وشك الانتهاء ستكونين أول شخص يطلع عليه مثل كل مرة..

بالمناسبة سأترك معك هذه الحقيبة الصغيرة التي فيها بعض المخطوطات ومشاريع لم تكتمل، بعد ولن أجد أحداً غيرك لأتركها معه.. سألني ماذا أكتب هذه الأيام.. قلت له: لدي بعض الكتابات المؤجلة منذ زمن طويل، وأحتاج إلى مزيد من الوقت حتى أشرع في إكمالها.. سألته عن نصوصه الضائعة التي فقد أصولها وكان منها نصان رائعان لأزال أذكرهما (سيدة الفجر وأحزان المدينة)، قال لي إنه لم يجدها حتى الآن..

الكتابة شيء مرهق للذهن وموجع للنفس يا صديقتي.. تثير الذكريات المؤلمة داخل دهاليز الروح.. عادةً ما نخبيء خيباتنا وهزائمنا ولعناتنا وصرخاتنا في داخلها.. كثيراً ما كنت أسأل نفسي: هل كان أبي محقاً في تمزيق كتاباته وقصائده.. لماذا لم يقل لي ذلك السر العظيم.. أو ربما أراد لي أن أقرر ذلك بنفسي ..

الليل لايزال طويلاً وعميقاً كجوف حوت.. يبتلع كل شيء أمامه، الذكريات الكثيفة والتفاصيل المملة التي تضيع بين رفوف الذاكرة المرهقة..

لا أذكر هل قلت لعامر: «إن الكتابة والرسم فعل خلاص وتحرر بالنسبة إلي من بؤس الواقع وعاديته وشغفنا الدائم لمعنى جديد للحياة.. في كثير من الأحيان نحتاج أن نخلق فضاء شاسعاً في دواخلنا حتى نتكيف مع هذا العالم ونحاول ابتكارعالم بديل في مخيلتنا»..

سألني عامر عن بقية أعمالي الفنية التي من المفترض تسليمها إلى إدارة المتحف البريطاني..

قلت له إنني أكملت معظم الأعمال الفنية والإعلانات.. وسوف أسلمها إليهم خلال الأيام المقبلة.. أخبرته بسفري إلى براغ لحضور الحفلة الموسيقية الأسبوع المقبل.. قال لي: ها هي تحققت أمنيتك

بزيارة تلك البلاد التي لطالما حلمتِ بزيارتها من قبل، ولا تنسي، ينبغي لك أن تزوري متحف فرانز كافكا..

قلت له: الفضل للصديقة ماريكا هي من حفزني لتحقيق تلك الرحلة، وذكرت له موضوع التذكرة التي وضعتها لي تحت الباب هذا الصباح، وبلا شك سأجعل زيارة متحف كافكا من أولى زياراتي، لِذا سأسافر قبل ثلاثة أيام من الحفلة حتى أستمتع بزيارة تلك المدينة الساحرة..

- محظوظة أنت بهذه الجارة الفريدة، وهي إنسانة رائعة، بلّغيها سلامي..

- أبلغها سلامك كأنك لن تراها مرة أخرى؟ سرح برهة ثم قال لي:

- من يدري يا صديقة ربما.. ربما، أخبرني بعد ذلك أنه بصدد الذهاب إلى السودان بعد يومين بسبب مرض والدته المفاجئ.. قلت له: أتمنى لها عاجل الشفاء والصحة..

- هل تتذكر يا عامر جلسة النقاش تلك في مقهى الجامعة عن أعمال الروائي فرانز كافكا في الذكرى الخامسة والسبعين على رحيله..

- نعم أتذكر ذلك اليوم، والأوراق القيمة التي قدمت، والقراءات لبعض أعمال كافكا..

كنت أعلم من قبل أن عامراً تعرض أثناء دراسته في الجامعة لفترة اعتقال، سألته عن تلك الفترة القاسية وأثرها فيه.. قال لي بعد تفكير وبنبرة هادئة بعد أن ارتشف من القهوة:

«إنها أيام موجعة بمعنى الكلمة بالرغم من مرور سنوات طويلة، إلا أنها تبدو وكأنها بالأمس، وكنت محظوظاً كوني خرجت من تلك التجربة القاسية بأقل خسائر معنوية ونفسية.. بعد تجربة المعتقل المريرة خرجت إنساناً آخر، غير ذلك الذي كان وأصبح من الماضي».

كما أوضحت مرة أن السبب الذي دفعني لكتابة تلك التجربة هو الخوف الرهيب والدموع التي رأيتها في عيني فتاة التقيتها مصادفة هناك للمرة الأولى في التحقيق، ومهما كتبت سأجد صعوبة في شرح تلك اللحظات بصورة مرضية، ولو كنت مثلك أملك موهبة الرسم وريشة الفنان لعبرت بذلك بشكل أفضل من القلم..

– لا تقلل من شأنك يا صاحب.. لا تنس أن العمارة الصفراء لاتزال راسخة في أذهان الكثيرين، وأنت من قام بنحت ذلك الاسم.. وسألته عن شكل التعذيب الذي تعرض له؟

- كان شكل التعذيب ممنهجاً ومخططاً له بدقة متناهية، ويتمثل ذلك في المنع من ممارسة حياتنا بشكل طبيعي وعدم استخدام الحمام في حالة الضرورة، المنع من النوم لساعات طويلة بقرع الأبواب، إضافة إلى الحفلات الجماعية التي تتمثل في الضرب والشتائم أمام الجميع لكسر إرادتنا، الإيهام بالقتل بوضع السلاح في الرأس برهة من الوقت.. وببساطة إنها حياة ذليلة بمعنى الكلمة وسلسلة من العذاب النفسي والجسدي.. كانوا يعذبوننا مرة باسم الدين ومرة باسم الوطن ومرة باسم لاشيء.. هم وطنيون وغيرهم خونة، لِذا أصبحت كلمة وطن باهتة وبلا معنى لأنهم أفرغوها من مضمونها.. أصبحت ببساطة أكبر كذبة عرفها الإنسان في حياته، الفواصل والحدود والتسميات هي من نسج الإنسان والتشبث بالأوطان أشبه بالتمسك بخيوط من الوهم والسراب.. كم كان الغجر محقين يا صديقة عندما أطلقوا على أنفسهم لقب «أبناء الرياح» بعد أن تخلصوا من عبء ووهم المكان والأرض، وهنا تكمن فرادتهم وسر حياتهم الساحرة والغامضة.. لا شيء مقدساً عندهم

سوى تمردهم الجميل وحياتهم الصاخبة.. يعيشون حياتهم بكل بساطة.. كان عامر قد أخبرني مرة بأنه التقى بائعة ورود غجرية ألهمته فكرة نص عن الغجر لم ينشره بعد.. ووعدني بإرسال النص عبر الإيميل، (أنجيلا... صاحبة الورود الحمراء).

مر الوقت سريعاً كالنسمة العابرة في ذلك المساء اللندني الساحر.. شعرت بالزمن يمضي بإيقاع سلحفائي، اللحظات المدهشة والرائعة تمضي دوماً بسرعة فائقة، كان الجو رائعاً ودون أن نشعر وجدنا أننا مكثنا أكثر من تسع ساعات متواصلة.. تفاصيل كثيرة تطرقنا إليها في ذلك اليوم والوقت نفسه لم يسعفنا للمزيد من البوح.. تحدثنا بعفوية وبراءة وبكل شفافية.. الحديث مع الأصدقاء شيق وجميل لا يمله المرء، لكن لماذا أشعر بمرارة في الحلق منذ أن ودعني عامر، هل راودني إحساس أننا لن نلتقي مرة أخرى.. كان عامر من القلة الذين ألتقيهم وأتحدث معهم في هذه المدينة، كانت تسكنه شخصية مصادمة وروح متمردة كالغجر الذين يتحدث عنهم بمحبة بالغة، لا يتصالح مع مكان واحد ويعيش حياته مثل البوهيمي لا يحمل هم الغد مهما كانت عواقبه.. رفيقه القلق الدائم الذي يمجده في كثير من الأحيان في كتاباته.. ينام في أي مكان بكل يسر وسهولة.. بعض الأوقات كنت أرى ملامح حزن خفية مرسومة على وجهه رغم الابتسامة التي تبدو على محياه.. وكان نادراً ما يتحدث عن ألمه وسبب حزنه.. قلت لنفسي: يبدو أن كلينا كان يحمل سِراً وألماً كبيراً في داخله، ولم يصارح أحدنا به الآخر.. وعدته بأن نتواصل عبر البريد الإلكتروني والتلفون..

قبل أن نغادر المقهى دندن عامر بصوته الجميل بطرب رائع:

بيني وما بينك مسافات الغياب

وحِس المطرة في الأرض اليباب

كان الحديث معك يشفي الجروح ويعطر عتبات هذا الزمن الرتيب.. لماذا سيرة الغياب اخترتها لتكون خاتمة ذلك اللقاء.. هل كان مجرد مصادفة محضة اختيارك لتلك الأغنية بالتحديد.. لا أزال أذكر تلويحتك لي من البعيد بعد مغادرتنا ذلك المقهى، وأنت تعبر الجانب الآخر من الشارع، وفجأة تلاشيت كطيف حلم جميل بين أروقة الضباب..

هل صدقت تلك العرافة التي حكيت لي عنها من قبل، عندما صادفتك مرة في أحد شوارع الخرطوم وأصرّت أن تطلع على كفك، وبعد أن نظرت إليها بتمعن أصبح وجهها عابثاً، ورفضت حتى المبلغ الذي منحتها إيّاه، قلت لها هل حظي سيئ إلى هذه الدرجة..؟

سكتت برهة من الوقت ثم قالت بعد تنهيدة طويلة:

- عمرك قصير يا ولدي.. لا أدري ما هذا الغموض الذي يصاحب وفاتك..

- هل صدقت كلامها وأخذته على محمل الجد.. قلت لي حينئذ:

- لقد رأيت في عينيها ملامح صادقة، ونبرات صوتها كانت معبرة لدرجة بعيدة..

تذكرت أن أطلع عامراً على لوحة الجدران الصامتة، بعد أن أكملتها والمستوحاة من أحد نصوصه (جدران الصمت والعذاب).. كان هذا ثالث عمل مشترك بيننا، أشاد بالعمل بعد أن شاهد اللوحة على الكمبيوتر المحمول.. لقد بذلتِ جهداً رائعاً يا صديقة.. أكاد أرى حركة النزلاء بريشتك المعبرة..

- لا تمدحني كثيراً، فأنت صاحب الفضل والفكرة والعمل ومصدر الإلهام لتلك اللوحة..

- العمل عندما يخرج إلى النور يكون ملك القارئ وليس ملك صاحبه.. وواصل مبتسماً: لا تنسي يا صديقة أنني من أنصار نظرية موت المؤلف.. عاد وتأمل اللوحة ثم قال:

- كثيراً ما أتحسر أن أعمال ورسوم المبدعين في المهجر، لم تجد القدر الكافي من تسليط الضوء عليها داخل الوطن بينما هنا يحتفون بها بشدة ويقدّرون أصحابها خير تقدير.. أضيفي إلى ذلك أن ثقافتنا البصرية إن جازت التسمية عموماً محدودة وقصيرة النظر ولا تصل إلى الأعماق.. بمعنى لو سألنا شخصاً عن لوحة معروضة أمامه ما هو تعليقك عليها؟ سيتأمل برهة من الوقت ثم يقول:

إنها لوحة جميلة تستحق الإعجاب.. هذا كل ما يستطيع قوله، وهذا يقودنا إلى أن نظرتنا إلى الجمال نفسه نظرة سطحية، لا يمكن اختزال اللوحة فقط في جمالها بل ينبغي أن تكون نظرتنا أبعد من ذلك بكثير.. محق أحد الكتاب حين قال: سوف يمر وقت طويل قبل أن تتحول مصادر الذوق من السمع إلى البصر، ومن الغريزة إلى الوجدان..

ـ في اعتقادك، أين يكمن الخلل بالتحديد؟

- لا شك أن الخلل يكمن في البدايات.. إننا بحاجة إلى ثورة تعليمية من جديد تهتم بثقافة الطفل في مرحلة الطفولة.. ونحتاج أن نبدأ من نقطة الصفر ونضع سؤالاً كبيراً؟ كيف نربي ونغرس في الأجيال المقبلة روح الفن والثقافة.. وكيف نرشدهم إلى الطريق الصحيح حتى ينطلقوا وحدهم بعد ذلك دون حاجة إلى أحد.

تعلمين يا صديقة أن في داخل كل طفل صغير شاعراً ورساماً وموسيقياً و.. الخ ليس علينا سوى توفير المناخ والأدوات حتى نشعل فيهم جذوة الإبداع..

- أتفق معك فيما ذكرت، لكنك تعلم أن الفن والثقافة خارج أجندة أصحاب القرار والنفوذ، وأي مجهود من قبلنا سيكون نقطة في بحر..

- (أن نوقد شمعة أفضل من أن نلعن الظلام)..

أذكر في نهاية حديثنا أنه جالت في خاطري قصة كنت قرأتها قبل عدة أيام، وسردتها لعامر وهي من كتاب «التاو»، وتعني الطريق لمؤلفه «لاو تسي» أحد حكماء الصين القدماء:

«أنهى الرسام تحفته الفنية التي كان يعدها في عزلة وصمت فترة طويلة من الزمن . وعندما جاء بها إلى البلاط الملكي حضر الأمبراطور لكي يشهد إزاحة الستار عن اللوحة .

أزاح الفنان الغطاء عن رائعته فأدهشت الإمبراطور وحاشيته.. وبينما كان الجميع يحدقون بإعجاب إلى التفاصيل الجميلة من غابات وسماء واسعة وسحب وأشخاص وطيور، أشار الفنان إلى نقطة في مركز اللوحة وقال: أنظر هنا يا مولاي، في هذا الكهف الجبلي تقيم الروح، ثم صفق بيديه فانفتحت بوابة الكهف، وتابع قائلاً: إن ما وراء هذه اللوحة أكثر جمالاً مما ترونه على سطحها، دعني أقودك إلى هناك، وقبل أن يفيق الإمبراطور من دهشته لرؤية البوابة المفتوحة في اللوحة، خطا الفنان نحو الكهف وتلاشى وراء البوابة داخل الكهف . عند ذلك تلاشت البوابة، وتلاشى الكهف، ثم تلاشت اللوحة تدريجاً بكل تفاصيلها، وتحولت إلى مساحة بيضاء لا أثر فيها لفرشاة».

– ما أجملها من قصة يا صديقة! لابد أن تعيريني ذلك الكتاب..

– لك ما أردت ياصاحب.. ثم قال لي: تقع عليكم أنتم الفنانين مسؤولية تبصير الجمهور وإرشاده، حتى يتفاعل مع أعمالكم الفنية ويستطيع استنطاقها وتفكيكها...

لوحة الجدران الصامتة كانت كبيرة الحجم، متران × متر.. تحتوي على العديد من المشاهد المتداخلة والمرتبطة بعضها ببعض.. غرفة معتمة داخل سجن.. طفل صغير يحبو على الأرض.. نزيلات جالسات على الأرض ومن خلفه سور سجن عالٍ.. غرفة حبس انفرادي صغيرة المساحة..

هذا هو النص الذي كتبه عامر (جدران الصمت والعذاب)، وألهمتني فكرته لرسم اللوحة التي أسميتها: (الجدران الصامتة)...

«نسمة هواء رطبة تنساب عبر كوة زنزانة سجن النساء، مصحوبة بصوت ريح خفيف وعواء كلاب، في ليل شتوي طويل وبائس يتقيأ الحزن والألم والعذاب، عقارب الزمن تمضي بتكاسل وتزحف بطيئة مثل السلحفاة..

بعض النزيلات نائمات دفن حزنهن بنوم عميق، وأخريات فارق النوم أعينهن من كثرة الأرق والتفكير، أم ياسين تتمتم بكلمات ساخطة عن أوضاع السجن الزريّة وتهدهد طفلها لكي ينام وتغني له:

نيمتك في العلية خوفي عليك من الحية

تعاليله يا بدرية يركن على صوتك ينام

- آه يا أم ياسين.. نحن الآن في بطن الحية نفسها، لقد تعودنا هذا الظلم منذ زمن بعيد، كنا في السجن الأصغر وانتقلنا الآن إلى السجن الأكبر، كيف لطفل رضيع مثل ولدك ياسين أن يولد وينشأ في هذا السجن؟ تباً لهذه الحياة كم هي قاسية، أم ورضيعها في سجن والأب في سجن آخر..

علقت نزيلة أخرى:

- لا تخافي عليه يا أختاه.. سوف يخرج من هنا أشد صلابة وبأساً، فقد شرب من مرارة الظلم منذ أول ثانية لقدومه إلى هذا العالم..

- متى ستتدخل يا الله وتريحنا من هذا العذاب؟

- عليكن بالصبر، سيتدخل لكن في الوقت المناسب..

- ومتى سيأتي هذا الوقت المناسب؟ بعد أن يدفع كل الشعب الثمن؟

- هذا قدرنا، كتب علينا أن نكون ضحايا عصر الانحطاط هذا، ويبدو أننا لن ننعم بالسلام قريباً مع هؤلاء النازيين الجدد الذين لا يعرفون إلا لغة البطش والموت..

إحدى النزيلات كانت تستمع إلى الحديث الدائر وخرجت فجأة عن صمتها قائلة:

تخيلوا حتى للسجن هذا درجات، عندما تكون الواحدة منكن في الحبس الانفرادي تتوق إلى هذه الجلسة، أقلّه هنا تجدين من يخاطبك ويستمع إليك، لا أن تخاطبي الجدران الصامتة..

سأحكي لكنّ الليلة جزءاً من تلك الأيام البائسة التي قضيتها في الزنزانة الانفرادية عندما وضعوني فيها مدة ثلاثة أشهر، كدت أفقد عقلي من كثرة الصمت والفراغ الذي يملأ الجدران الكئيبة..

أغني أحياناً بصوت عالٍ حتى لا أفقد القدرة على الكلام، أبكي، أضحك، أصرخ، وأشتم في وجه الفراغ حتى أكسر حاجز الملل والإحباط، الذي يتسرب في داخلي مثل سرطان عندما يدخل الجسم، أفكر وأفكر، أخاطب الجدران تارة بفرح وتارة ألعنها وأرتمي فيها، وأسكب فيها دموعي وآهاتي، وأحياناً أنظر إليها بصمت عميق عسى أن أجد ومضة أمل عابرة، أو نقطة ضوء عند نهاية رحلة التأمل، وكما تعلمون العزلة ليست في قاموسي، لكن للسجن أحكامه المجحفة، رغم كل تلك المعاناة لم أيأس قطّ، حقدي على هؤلاء الوحوش والجلادين يزداد كل ثانية حتى كاد ينفجر، وازددت عزيمة وإصراراً على الصمود والبقاء رغم كل ذلك الوجع والأسى، استمددت قوتي من كوننا أصحاب قضية عادلة رغم تواطؤ العالم (المتحضر) ضدنا، ومن اطلاعي على مذكرات سجناء قضوا سنوات طويلة في السجون لكنهم خرجوا بكل صلابة وإرادة كأنهم كانوا في رحلة نقاهة طويلة، سرحت قليلاً مع نفسها وانهمرت دمعات حارة على خديها، تأثرت رفيقاتها بهذه الدموع السخية، وواصلت بعد ذلك بصوت خافت فيه نبرات حزينة:

تذكرت النزيلة سحر جبر التي انتحرت في زنزانتها الانفرادية الملاصقة لي، بعد أن تم تعذيبها في الاستجواب وحرمانها مدة أسبوع كامل من النوم.. قابلتها مرة عند الحمام قبل انتحارها بثلاثة أيام حكت لي بهمس عن التعذيب الوحشي الذي تعرضت له وأنهم هددوها بالاغتصاب، وأعتقد جازمة أن هذا هو سبب انتحارها، فقد لمحت لي بأنها سوف تتحمل أي شكل من التعذيب إلا الاغتصاب.. لن ألومها ولو كنت مكانها في ذلك الموقف لما وجدت سبيلاً لما قامت به.. هل أصفها لكم؟ فأنتم لم تلتقوها في هذا السجن.. فتاة جميلة جداً تبلغ من العمر حوالى التاسعة عشرة، ذات وجه طفولي يشع منه جمال مذهل، تبدو كزهرة يانعة ومشرقة قطفت تواً من حديقة غناء.. أذكر في ذلك اللقاء الذي لم أعلم أنه سيكون الأخير، ودعتني بنظرات صافية تخبئ خلفها حزناً عميقاً وآلافاً من الكلمات، عندما سمعت بخبر وفاتها انتابني حزن كثيف وشعرت بوخزات ألم في ضلوعي، بكيت عليها يوماً كاملاً حتى تورمت عيناي من شدة البكاء.. لم أتخيلها حسمت قرارها بهذه السرعة.. لا أدري ماذا كان سيكون مصيري لو لم تنتحر ؟؟ هل كنت سأصمد أكثر من ذلك.. أعلم أنها قدمت لي معروفاً بموتها هذا، ولا أدري كيف أرد لها ذلك الجميل.. أخرجتني إدارة السجن من الزنزانة الانفرادية بعد يومين من حادثة الانتحار، لم أفرح قطّ بذلك الخروج إذ كان ثمنه انتحار تلك المناضلة الباسلة...

آه يا رفيقات الوجع.. هكذا تمضي أيامنا بكل تفاصيلها المؤلمة، تسحقنا الأقدار وتقذف بنا عند حافة الحياة بلا أمل أو غد أفضل، نعيش مكبلين بقيود وأحقاد الجلادين تحت سياط من الظلم الأبدي الذي يخنق أنفاسنا ويطوق حاضرنا ومستقبلنا بسلاسل من الوجع..

أشرقت شمس الصباح باهتة الضوء بعد ليلة طويلة من الليالي المظلمة داخل الزنزانة.. جدران السجن كما هي كالحة وكئيبة ومعتمة تحمل ملامح الانكسار والقهر والصمت والعذاب، وذاكرة النزيلات تحمل بقايا حلم بترقب وميض نور وإشراق ضوء تسطع من خلفه شمس الخلاص لتنير هذه الظلمة..»

المطر عاد يهطل بغزارة هذه المرة.. ألمح وجوه المارة يمضون في الطريق بخطى مسرعة أجسادهم مبللة بالمطر، تبدو على وجوههم تعابير خفية من السخط، قلت لهم في سري أيها المارون في الطرقات لا تلعنوا المطر إنه من بركات السماء..

عدت بعد ذلك إلى البيت إذ كان عليّ إعداد حقيبة السفر.. وترتيبات وتجهيزات بخصوص معرض الفن النوبي المقام بمتحف لندن التاريخي بعنوان: (رحلة في أعماق الحضارة النوبية القديمة)..

قبل أن أنام فتحت البريد الإلكتروني، وجدت رسالة طويلة من مديرة المتحف تقول فيها إنها معجبة بالأعمال والتصاميم الفنية التي أرسلتها لها عبر الإيميل والإعلانات التي قمت بتجهيزها للمعرض، وذكرت لي أنها بصدد إرسال مندوب من المتحف ليتسلم مني المجسمات والأعمال الفنية صباح الغد، وأبلغتني أنها تود أن تقابلني خلال الأسبوع المقبل.. بعثت رداً على رسالتها وشكرتها على تعليقها، وأكدت لها حضوري حسب الموعد..

سيطر عليّ إحساس غريب لم أعرف ماهيته، كثير من الوجع يلازمني، وقليل من الملل يحاصرني، وعيناي مسكونتان بالتعب، أشعر بخدر كثيف يتسرب داخل جسدي، سرحت مع أزيز الطائرات المسائية، همست في أذن الليل قائلة: «تعال يا ليل خليك معايا عايز أشكي ليك سُهدي وأسايا».. وجدت نفسي تائهة في عالم من الفراغ لم يخلصني من تلك الحالة سوى النوم الذي كنت بالفعل في أمسّ الحاجة إليه..

طقوس الذاكرة

لاتزال السماء ملبدة بالغيوم وبشائرالمطر تلوح عند خط الأفق، منذرة بمزيد من الهطل.. المطر في هذه المدينة يهطُل في الفصول الأربعة على مدى العام .

تذكرت عامراً عندما قال لي ذات مرة: إن سيرة المطر حاضرة بكثافة في الشعر الإنجليزي..

الأشجار تبدو مستغرقة في حالة ثبات وعزلة وصمت مبهم تقف بكل شموخ كالتماثيل الإغريقية القديمة..

فتحت الكمبيوتر المحمول.. وجدت رسالة من عامر «إليك يا صديقة النص الذي أخبرتك عنه، أتمنى أن يرضي ذوقك الرفيع وجنونك الجميل»..

«في أزقة حلمك القصية، راودك طيف تلك الفتاة التائهة في رحم الغيب.. تلك المسكونة بالتجوال والتسكع على ضفاف الأزمنة وفي شتات الأمكنة، كأنها أصبحت مُوزعة بين المدن وصارت جزءاً لا يتجزأ من جغرافية المكان، عقيدتها التمرد وحياتها التشرد والإبداع، تكسب رزقها من نقش الأوشام على الأجساد، فقد ورثت تلك الحرفة من عوز الأيام، فهي نفسها لا تذكر من علمها ذلك السر، وفي المساء تبيع الورود للعابرين لتذكيرهم بأنهم أنصاف عشاق وعندما لا تجد زبائن تمارس شغفها بالرسم على أقرب جدار مجاور كأنها تريد أن تقول:

«مررت من هنا ذات يوم».

سألتها بلا مقدمات:

- من أين أنتِ؟

- من حُسن حظي ليس لي وطن..

كم حسدتها في سرك على هذه الإجابة..

- أين ولدتِ؟

- لا يهمني مكان ميلادي بقدر ما يهمني مكان موتي..

- هل تخشين الموت ؟

- بل أخشى الحياة أكثر...

- لماذا كل هذه الكآبة ؟

- إليك يدي.. سلمني لحظة فرح واحدة في هذا العالم لكي تمحو عني هذه الكآبة.

- أسباب الفرح موجودة في دواخلك، عليكِ إخراجها بعُنوة..

- لِذا تجدني في رحلة بحث دائم داخل روحي، عن تلك الأسباب المفقودة حتى الآن..

- المهم ألا ترفعي راية الاستسلام..تتكلمين خمس لغات.. بأية لغة تحلمين؟

-«الأجوبة عمياء وحدها الأسئلة مبصرة».. أدهشني سؤالك بالفعل.. لكن يبدو أنه في حالتي لغة الحلم تكون حسب شخوص الحلم نفسه، ويصدف في الغالب أن يكون الحلم صامتاً..

- تذكرت صديقاً رحل إلى الضفة الأخرى وكانت حالته مشابهة لحالتك، سألته السؤال نفسه ذات يوم فقال لي:

أحلامي أحياناً كرنفال ومزيج من اللغات والكلمات، و...

قبل أن تكمل حديثك معها اختفى أثرها وراء ظل لمشترٍ، كان قد وعدها قبل ألف عام بشراء ورود منها، لكنه لم يفِ بوعده حتى الآن..

هل نسيت أن أقول إنها من الغجر واسمها أنجيلا ؟

******

أرسلت إليه رسالة علقت فيها على هذا النص وقلت له:

الغجر أناس رائعون وتمردهم فريد في نوعه.. لا شيء مقدّساً عندهم إلا الفوضى..

كم هو جميل هذا النص يا عامر.. أعجبني جنون أنجيلا وتمرّدها بشدة وشعرت كأنها واقِفة أمامي لها خصل شعر سوداء طويلة، ترسم على الجدران أشكالاً متعددة تتداخل بعضها في بعض مع مرور الزمن.. وجهها يحمل ملامح تحد وصبر..

إسمح لي أن أتقاسم وإياك جنون هذا العمل، وأن أرسمه في لوحة فنية...

من هنا أنظر إلى الحديقة التي طواها الظلام ودفنها في صدره، من البعيد تأتي أصوات ألعاب نارية أشبه بتلك الألعاب التي تطلق في أعياد رأس السنة الميلادية، أو تلك التي تطلق بكثافة في عيد الديفالي أو الديوالي، وهوعيد الأنوار الذي تحتفل به الجالية الهندوسية:

«يقام الديوالي إحياءً لذكرى لاكشمي، إله الثروة، ويستمر المهرجان مدة خمسة أيام متتالية في الشهر الهندوسي، يكون اليوم الرابع فيه حافلاً بالألعاب النارية احتفالاً برأس السنة، وتضاء الشموع في البيوت.. ويعتبر الديفالي أحد المهرجانات الأكثر شعبية والمنتظرة بلهفة في الهند عند الصغار والكبار».

كانت زميلتي أليشا وهي من أصول هندية ومواليد دار السلام، حدثتني عن الحكيم الهندي بهاراتا، وهو يعتبر أشهر من كتب عن فنون الهند.. وكتابه ناتيا شاسترا يسمى الفيدا الخامسة.. ويعتبر من أعظم الكتب في علم الجمال الهندي.. شكلت نقاشاتنا المستمرة حافزاً كبيراً لي لأقوم بالاطلاع على ملحمة الهند الكبرى (المهابهاراتا) التي تركت أثراً بالغاً في نفسي، وعرفتني على الكثير من مزايا تلك القارة الشاسعة، وكانت خير مدخل للولوج إلى بلاد الهند....

حالة قلق تنتابني بشدة عندما أكون بصدد السفر، وأجد صعوبة في النوم لكن سأحاول، ما زال هناك متسع من الوقت أمامي.. تبقى سبع ساعات على موعد إقلاع الطائرة.. ساعتان أو ثلاث ساعات من النوم تكفيني..

أثناء ذلك، شعرت بالنعاس يتسرب إلى خلايا جسدي، حتى ولجت عالم النوم لحظة الانفصال عن الواقع.. أشعرأن هناك روح فتاة غجرية تقمصتني تبدو كأنجيلا، تلك المسكونة في داخلها بألق

الفجر ووهج الشمس وسحر الغروب وصخب الأمسيات وسكون الليل، لا يعرف قلبها سوى لغة الحب والسلام والتصالح مع الأمكنة.. رغم الوجع الذي يستوطن جسدها، إلا أنها كانت مفعمة بطعم الفرحة وسيرة البهجة كأنها تسخر من قدرها نفسه، وتبادله القسوة بالعطف والجحود بالرضاء والحزن بالفرح..

ما أجملك يا فتاة.. ما أبسط أحلامك وطموحاتك.. لا فرق لديك بين الأمس واليوم والغد..

الكل عابر وسيمضي، وكلنا ضيوف عابرون في حضرة هذه الحياة.

وصلت صباح هذا اليوم إلى مدينة براغ عاصمة التشيك، أول ما لفت نظري، في تلك المدينة الساحرة، مبانيها العتيقة الأثرية.. والجسور والأبراج التي تعلو كنائسها وقصورها القديمة.. كان الطقس رائعاً والسماء تبدو أكثر صفاء وزرقة.. كانت غرفتي بالفندق تطل مباشرة على نهر فلتافا الذي يخترق العاصمة التشيكية براغ التي تقع عند وسط منطقة بوهيميا التاريخية..

«بوهيميا هي مقاطعة تشيكية إلا أن المصطلح انتشر بمعنى آخر في فرنسا في القرن التاسع عشر الميلادي، البوهيمي أصبح يدل على أي كاتب أو فنان يميل إلى اتخاذ سلوك أو العيش بنمط حياتي غير المألوف، سواء أكان هذا سلوكاً واعياً أم غير واع، وكما هي الحال عند الغجر، البوهيمي عادة هو ذلك الفقير الذي يبدو على حالة رثة، فهو لا يهتم بمظهره لأنه مشغول بفنه وطقوسه الغريبة لكسب المال.. الغجر والبوهيميون يشتركون في خصائص كثيرة بل إن الغجر هم الشرارة الأولى لبداية ما يعرف بالبوهيمية في الأدب والفن في فرنسا»...

بعد أن وضعت حقائب السفر وتناولت وجبة الإفطار على عجل.. كان عليّ أن أقوم بزيارة متحف فرانز كافكا، المشوار لم يتعدّ السبع دقائق منذ مغادرتي الفندق، ها أنذا في البيت الذي أبصر فيه كافكا النور، كل ركن فيه يسرد حكاية عن مسيرة حياته، وقفت عند النافذة التي كان ينظر من خلالها كافكا إلى العالم.. ينظر ويتأمل ويكتب على هذه الطاولة:

«أنت حر، وذلك هو سبب ضياعك.

مغزى الحياة يكمن في أنها تتوقف..

من يبحث لا يجد، أما من لا يبحث فسوف يتم العثور عليه..

من يحتفظ بالقدرة على مشاهدة الجمال لا يشيخ أبداً..»

لاتزال البشرية تسير في الخط القديم نفسه، وعلى المحك يا كافكا والعالم كما هو من حرب إلى حرب ومن بؤس إلى بؤس.. خرجت من هناك أحمل معي عبق المكان وذاكرة من رائحة فصول الحكم والمحاكمة والقلعة، واتجهت نحو قلعة براغ التي تعتبر المعلم التاريخي الأشهر في المدينة، وهي أكبر قلاع العالم، ومقر الحكام في تشيكيا على مر العصور من زمن حكام المنطقة الرومان وملوك بوهيميا وحكام العهد الشيوعي السابق .

في اليوم الثاني وددت ألا أجهد نفسي حتى أستعد لحضور الحفلة بذهن صاف.. كان عليّ أن أقوم بزيارة متحف الفنون إضافة إلى بعض معارض الفن التشكيلي بالمدينة، هكذا اعتدت القيام بزيارة معارض الرسم والمتاحف في كل مدينة أزورها، لم تبخل إحدى الصديقات من التشيك بأن أعطتني خريطة طريق واضحة المعالم، وجدول تحركات في منتهى الدقة..

تلقيت رسالة من ماريكا تركتها لي في استقبال الفندق ذكرت أنها حضرت أمس، لكنهم مشغولون بإجراء بروفة عرض على المسرح.. تركت لي رقم جوالها للتواصل، وبالفعل اتصلت بها ومرت بي، وأصرت أن أرافقها في حفلة عشاء على شرفها في قصر الثقافة.. قلت لها لكني لست مدعوة.. أخرجت من حقيبتها دعوة تحمل اسمي، ضحكت وقلت لها: يبدو أن الأمر في منتهى الجدية ...

في مساء اليوم التالي كنت من أوائل الحضور عند باب مسرح براغ الوطني.. كان مقعدي في منتصف القاعة مواجهاً لخشبة المسرح مباشرة..

عندما بدأت الحفلة كان الحضور يستمع بصمت.. وإصغاء تام إلى المقطوعة الموسيقية الرائعة التي قدمتها الفرقة. كانت ماريكا واقفة بكل شموخ وألق ومستغرقة في العزف بكل مشاعرها وأحاسيسها، مشرقة كسطوة حلم شفاف ومدهش..

أربعة أيام رائعة لن أنساها طوال حياتي قضيتها في مدينة براغ الساحرة.. بطبيعتها وثقافتها وتاريخها العريق ومبانيها الأثرية العتيقة..

أرسلت رسالة عبر الإيميل إلى عامر كما وعدته.. كتبت له عن انطباعي حول رحلتي إلى مدينة براغ، وأخبرته بانتهاء العمل الثالث المشترك بيننا، كانت لوحتي (آلام العاشق) عبارة عن قراءة لقصته التي تحمل عنوان (بكائية عاشق عند ضريح الحبيبة).

شخص جالس وحيداً أمام قبر حاملاً معه باقة زهور.. طيور محلقة في الفضاء، سحب وسماء زرقاء تبدو في أعلى اللوحة:

«خرج مبكراً من منزله مع أول خيوط الفجر.. يجرجر خطوات مثقلة بالتعب والإرهاق.

جلس على ركبتيه قرب ضريح حبيبته، بعد أن وضع إكليلاً من الزهور على شاهد قبرها، دمعت عيناه بغزارة وخاطبها كأنها تقف أمامه:

عذراً حبيبتي..

لقد انقطعت عنك مدة من الوقت دون إرادتي، لكن طيفك المشرق والجميل ظل حاضراً يرافقني في كل لحظة، لمدة ستة أشهر لم ترَ عيناي الشمس إلا أمس.

أخذوني من المنزل إلى السجن في ليلة ظلماء بعد أن أخذوا كل الأشياء التي تخصني وخصوصاً الكتب والدفاتر، سألوني عن أشخاص لم أعرفهم ونسبوني إلى تنظيم لم أسمع به مطلقاً في حياتي، كل ما قلته لهم إنني كفرت بالسياسة والسياسيين في هذا البلد منذ زمن بعيد..

تخيلي لم يدعوا حيلة.. لفقوا لي اتهاماً فورياً، ووصفوني بأنني عنصر متمرد وثائر قد أشكل خطراً على النظام في يوم من الأيام..

المهم أنني لم أتحدث بعد ذلك وفضلت الصمت المطلق.. قالوا لي بعد كل تلك المدة من الاستجواب والتحقيق والتعذيب.. يمكنك الآن أن تذهب إلى منزلك فالأمر كان مجرد تشابه في الأسماء...

هكذا وبكل ببساطة ودون أية كلمة اعتذار واحدة.. وعندما سألتهم عن أغراضي قالوا لي: لا تسأل عنها فقد أبيدت، هذه هي باختصار الحياة التي أعيشها..

هل أحكي لك عن الوطن؟ وعن حال البؤس في عيون الناس؟ ماذا أقول لك سوى أن الوطن أصبح طارداً للبشر وللحجر ولاتزال تتحكم فيه عصابة من المجرمين والطفيليين والمتسلقين.. وكما أخبرتك في المرة السابقة فقد رحل كثير من الأصدقاء المشتركين بيننا، منهم من توفي ألماً وحسرة ومنهم من هاجر إلى مدن السراب.. وانقطعت أخبار البعض منهم ولا أدري إذا كانوا أحياء أم لا؟

آه كم أفتقدك يا حبيبتي.. أفتقد نبرات صوتك الساحرة ورقة قلبك وأنوثتك العذبة وجمال روحك وقوة شخصيتك.. رحيلك يوجعني ويدمي قلبي، رحلتِ وأخذتِ معك قلبي وعقلي وروحي وأصبحت ذكرى إنسان، برحيلك انتحرت الحياة وفقدت طعمها وبريقها وأخذتِ معك كل ما هو جميل في هذا الوجود، وفوق كل ذلك أفتقد وجودك الذي كان يملأ حياتي بالحنين والسعادة والعشق لدرجة الجنون.. لم أعرف أنثى بعدك كل تلك السنوات العشر منذ رحيلك، لم يعد بي شهوات، فقد أصبت بتبلد المشاعر والأحاسيس، وأصبحت إنساناً محبطاً ويائساً ولم أرَ أية بارقة أمل في الحاضر ولا في المستقبل، أصبحت وحيداً لا أحد لي سواك يسمع ثرثرتي، أحمل على كتفي عبء الحياة وهموم الأيام وأصداء الخيبة والوجع.. لم يعد هناك شيء يغريني قطّ.. حتى الموسيقى التي كنت أهرب إليها لتخفف عني الآلام هجرت سماعها وتناست أصابعي العزف على الجيتار، وأصبح مجرد منظر معلق في الجدار من يستحق أن أعزف له بعدك يا حبيبتي؟ وللأسف حتى الآن لم أملك الشجاعة الكافية بعد لأخلص نفسي من هذه المهزلة... سأذهب الآن يا حبيبتي.. على وعد أن أعود قريباً إما زائراً وإما ضيفاً دائماً، وسأنتظر قيامة موتي لتنقذني من هذه الحياة.. ارقدي بسلام وأدعي لي أن أكون بالقرب منك، فلم أعد أحتمل الانتظار، لم أعد أحتمل الانتظار»..

قلت لعامر ذات مرة: هل تعتقد أن تجربة الاعتقال الذي تعرضت له تركت أثرها فيك وفي كتابتك؟

قال لي: بلا شك تجربة السجن تركت أثراً عميقاً في دواخلي.. لكن تخلصت منه بالخروج من عذابات الأنا، ودخلت في جدلية السؤال والكيف.. وورطة الآخر في تمجيد الذات وشهوة التعذيب.. وأبصرت من خلالها قدر الإنسان في هذا الوجود المرهق..

سألت نفسي ذات مرة: هل كان عليّ أن أتعرض لتجربة تعذيب مريرة حتى أصل إلى قناعة أن الإنسان في كثير من الأحيان كائن انتهازي ومدمر ومتسلط وحقير..

تجربة المعتقل تجعل الإنسان يشعر كأنه منبوذ ولا قيمة له في هذا العالم..

أقلب الآن بعض أوراقي المبعثرة في دفتر قديم، ألمح طيف كلمات كتبتها منذ زمن بعيد:

القلق رفيق المسافر

الطريق قبلة التائه

العودة أنشودة الغائب

الحلم أمل الفقراء

الليل توأم الروح

الصبر تميمة العابر

الحب خبز العاشق

الحرية أمنية الثائر

في اليوم التالي لقدومي ذهبت لحضور معرض الثقافة النوبية بالمتحف البريطاني الذي بدأت فعالياته قبل يومين.. حيتني مديرة المتحف وقدمتني بحفاوة بالغة لعدد من ضيوفها القادمين من دول مختلفة، رحبوا بي وأشادوا بالأعمال الفنية التي رسمتها والإعلانات التي صممتها للمعرض.. تلقيت دعوة من مديرة معرض فانكوفر للحضور والمشاركة في ندوة ثقافية تعنى بالفنون وتاريخ الحضارة القديمة في وادي النيل..

وجدت رسالة تحت باب المنزل من ماريكا تخبرني فيها بسفرها بعد ثلاثة أيام في رحلة فنية مع الفرقة لعدد من دول شرق آسيا قد تستغرق أكثر من أسبوعين ..

ذهبت إليها عند المساء وتحدثنا عن حفلة براغ.. وسألتني عن انطباعي حول ما قدموه من مقطوعات، قلت لها، إنني لأزال أسيرة تلك اللحظات الساحرة التي غمرتنا بها فرقتكم الموسيقية، وكانت أمسية رائعة.. سألتني عن معرض الثقافة النوبية ووعدت أن تحاول الذهاب قبل سفرها الأسبوع المقبل..

قالت إنها شاهدت الافتتاح في التلفزيون وسمعت تعليق بعض النقاد، وإشادتهم بالأعمال التي صممتها.. وقبل أن أغادرها قدمت لها هدية عبارة عن لوحة (قيثارة النيل) وقلت لها: هذا أبسط شيء يمكن أن أقدمه لك يا صديقة.. شكرتني بشدة على تلك الهدية وقالت لي: حافظي على نفسك حتى أن نلتقي.. ودعتها وفي قلبي حسرة وأسى بالغ ودموع حبستها في عيني..

لم أتلق رداً من عامر حتى الآن.. وعلمت بعد ثلاثة أيام بخبر اختفائه من بعض الأصدقاء بالسودان الذين ذكروا أنهم بحثوا عنه في كل مكان، لكن دون أية بشائرأمل في ظهوره.. حاولت الاتصال عبر رقم هاتفه الذي أعطاني إياه قبل السفر لكن وجدته مغلقاً.. حتى ذلك الوقت لم ينتبني قلق بأن مكروهاً قد أصابه وقلت ربما أراد الابتعاد عن جو العاصمة المزدحم.

صوت داخلي يقول لي إنه في زيارة أهله.. كيف له أن يختفي عن الأنظار في هذا التوقيت بالذات.. لا أدري لما تذكرت حادثة اختفاء أحد أقاربنا بعد خروجه من العمل المسائي قبل أكثر من عقدين من الزمان ولم يعد حتى الآن.. أهله لديهم الأمل أن يأتي مرة بدون سابق إنذار بعد كل هذه المدة.. ظاهرة الاختفاء لم تكن موجودة في مجتمعاتنا من قبل.. كنا نسمع بها في دول أخرى لكن يبدو أن الأنظمة القمعية أصبحت تستورد الأوجه القبيحة من الخارج للبطش بكل من يعارض وجودها وذلك حتى تمتد فترة وجودها في الحكم لأجل غير مسمى.. هل كان التيه قدرك المسطر يا عامر؟ هل تخيلت حدوث هذا الأمر في يوم من الأيام.. أم أنه آخر شيء كنت تتوقع حدوثه؟ هل كان ضرورياً أن تختفي حتى نشعر بقيمتك ومكانتك في قلوبنا.. هل ستخرج وتظهر بعد كل هذا الغياب.. هل كانت شكوكي في محلها أننا لن نلتقي مرة أخرى.. كم أشتاق إليك يا صاحب، وإلى ضحكتك الصافية النقية وإلى نقاشاتنا الطويلة.. تباً لك أيها الحزن..

تقول سيرته الذاتية: عامر الياس.. خريج معهد الموسيقى والمسرح.. كاتب مسرحي، قاص وناقد أدبي.. يقول أصدقاؤه عنه: تسكنه روح فنان متمرد وثائر على كل شيء حتى على نفسه.. مصادم، ويمكن أن يدفع حياته ثمن مبادئه وقيمه العليا..

مساحة ضبابية وغائمة تلف حول نفسي الآن.. تلقيت اتصالاً من مهران صديق عامر يستفسر عن صحة الأخبار.. بخصوص اختفاء عامر قلت له: للأسف، إن الخبر صحيح..

قال لي إنهم بصدد القيام بحملة بحث عنه وسوف يقومون بكل شيء يمكن أن يساعد على كشف تفاصيل ذلك الاختفاء.. وقال لي قد أذهب إلى السودان على القريب العاجل لأننا لن نستطيع فعل شيء من هنا.. قررنا أن نتواصل بعضنا مع بعض في الفترة المقبلة..

ضباب كثيف يخيم على الحديقة الخلفية والرؤية تكاد تكون شبه معدومة.. الليل هادئ يمارس طقوس صمته المعتاد بمزاج عالٍ فوق العادة، لا يزعجه سوى تساقط الأوراق من الأشجار وصوت الريح الخفيف.. راودتني رغبة شديدة في ممارسة رياضة العدو الآن في صالة الألعاب المجاورة.. بعد أن حرمني منها المرض فترة طويلة.. كنت بحاجة ماسة إلى تنشيط الجسد المتعب والذاكرة المرهقة بحزمة الأدوية الكثيفة.. رياضة العدو والسباحة، هذا ما كنت بالفعل أحتاج إليه.. انتشلني صوت محمد منير من تلك الحالة الضبابية التي كنت منغمرة فيها، صوت يوقد جذوة الشوق التي تزداد اشتعالاً.. بين الصوت والحنين إحساس غامر يتأرجح بين الفرح والحزن.. تذكرت دفء البيوت هناك الملأى بطعم الألفة والحنين والأمان وطعم الذكريات... (ربك لما يريد الصعب بيتهون، والحزن بيتلون، طول ما الإيد في الإيد)..

عند بهو البناية قبل خروجي، صادفت جارتي كاليستا التي قالت لي صديقتك ماريكا هذه رائعة لا يمكن أن تكون من بني البشر.. مؤكد أنها ملاك سقط سهواً إلى عالمنا البائس هذا.. أول أمس كانت تعزف مقطوعة موسيقية لباخ أدهشني عزفها.. لقد أخرجتني من حالة حزن رهيبة أصابتني قبل عدة أيام، بعد أن تلقيت نبأ مرض والدي ورفضه تناول العلاج، وسأسافر بعد غد إلى اليونان للاطمئنان إلى حالته الصحية، سأترك عندك مفتاح الشقة مثل كل مرة يا صديقة..

- كم ستمكثين هناك؟

- لا أدري قد تطول هذه المرة شهراً كاملاً، سأحاول إقناعه بتناول الأدوية وجرعات الكيماوي.. قالت لي والدتي إنه برر عدم تناوله الأدوية بأنه لا يريد أن يطيل في أيامه بمزيد من الألم والعذاب طالما النهاية معروفة ولا تحتاج إلى مزيد من المراوغة.. لقد مللت الموت البطيء.. أريد حرق المراحل مرة واحدة، الموت رحلة مدهشة قد تكون أجمل من هذه الحياة البائسة وبعد فترة ستتعودون غيابي.. الموت ليس أمراً سيئاً لهذه الدرجة، ابتهجوا وانثروا الفرحة في هذا البيت بدل هذه الكآبة التي تغطي وجوهكم.. لا تحزنوا، لا شيء يدمر الإنسان سوى الحزن...

قالت لي والدتي بسخرية: إن المرض جعل والدك ينطق حكماً مثل الفلاسفة القدماء..

قلت لها: هو بالفعل فيلسوف لكن على طريقته الخاصة...

كانت تتكلم والدموع تتساقط من عينيها مثل المطر.. غصة حزن وقفت في حلقي في تلك اللحظة.. واسيتها بكلمات مشجعة وتعانقنا بشدة وقلت لها: قلبي معك أيتها الصديقة.. هكذا هي الحياة، مكتوب علينا هذا القدر ولا مفر منه..

تأثرت ماريكا عندما أخبرتها بمرض والد كاليستا وسفرها المفاجئ يوم غد إلى أثينا.. وذهبت إليها في شقتها لمواساتها ووداعها كما فعل بقية سكان البناية الذين تربطهم بكاليستا علاقة ود ومحبة.. صوت الريح يصفر.. يعلو ثم ينخفض من على شرفة كاليستا.. عبر الأنيموميتر جهاز قياس سرعة

الرياح، تطل من على الشرفة رائحة أزهار عطرة تفوح مع نسمات الريح الخفيفة.. بعد أسبوع تلقيت إيميل من كاليستا تخبرني بحالة والدها وإصراره على عدم تناول أي علاج ومضادات رغم الألم الذي يتسرب في جسده.. حالته من سيّئ إلى أسوأ.. وكل محاولاتنا معه باءت بالفشل.. طبيب من العائلة قال إنه سيفارق الحياة خلال أيام قليلة.. رفض أن نستقبل كاهناً من الكنيسة.. قال لنا: لم أدخل كنيسة طوال حياتي.. لماذا إذاً تأتون لي بهم الآن.. سأرحل بسلام دون حاجة إليهم.. أنا مؤمن على طريقتي الخاصة.. هل هذا واضح لكم.. هكذا طبع والدي يا صديقة.. عنيد حتى في أحلك الظروف...

ختمت رسالتها قائلة: هكذا تمضي أيامي هنا في أثينا يا صديقة من حزن إلى حزن... تحياتي عبرك لماريكا ولكل من يسألك عني في غيابي .

أجبت على رسالة كاليستا، وتمنيت لها عاجل الشفاء لوالدها، وقلت لها: ليس لك سوى الصبر يا صديقتي، فهذا هو قدرنا في هذه الحياة.. نحيا لنموت، ونموت لنبعث من جديد..

طقوس النـهايات

ليل طويل يمضي على مهل.. جدران صامتة أدمنت دهاليز السكون الأبدي، بينما الفراغ يواصل بكاءه بقلب عاشق ولهان تائه في عزلة مهيبة.. الليل له خصوصية مميزة لا تضاهيها أوقات النهار بكل تفاصيله المعلنة ووضوح رؤيته.. عند هبوط الليل يبدو كل شيء متجانساً ومنسجماً مع نفسه.. عندما يتمدد الجسد في الليل ويئن من التعب يبعد عن كاهله كل شيء.. الذكريات والتفاصيل الصاخبة ويدخل بهدوء صوب أروقة الحلم الفسيحة.. حشود من الأفكار تأتي متفرقة عند أوقات النوم.. ذات تحاور نفسها لدرجة الملل، وتتسلق برشاقة وخفة عتبات الأخيلة التي تمتد إلى ما لا نهاية.

تستغرق الذاكرة وتتأمل بعمق في رسم المشهد لإعادة صياغته من جديد.. في تلك الأثناء يعيدها ضوء القمر الفضي المتوهج قرب النهر لبداية خط سير الحلم.. انقضى الليل ولم ينقضِ الحلم، تزداد لغة الصمت كثافة وفجأة يكسرها صوت الأمواج؛ كان هديرها أشبة بصوت موسيقى حزينة لم تعرف طعم الفرحة قط.. لمحت في النهر طيفاً شفّافاً وتذكرت بعد لحظات أنه ظلي في الماء، ظلي يمشي وحده داخل الماء، هل تعب ومل ملاحقتي أم أنه أراد أن يتسكع وحده بين صفحات النهر؟ بعد فترة من الوقت عاد ظلي يتسكع.. لكن ليس بمفرده فقد كان برفقته ظل آخر بهي الطلعة، ولا يشبه الظلال الأخرى.. قلت لنفسي:

يا مثبت العقل.. يا أيها الناس لا تثقوا حتى بظلالكم.. لا شيء ثابتاً في هذه الحياة..

لو كان بمقدوري أن أصرخ لصرخت بأعلى صوتي حتى يشق صوتي عنان السماء.. حتى أعرف أين أنا، في حلم أم علم أم في ساعة جنون.. كان المشهد المرسوم على ضفة النهر يكفي لجعل خصلات شعري تطير، لكن قوة خفية جعلتني صامدة وثابتة كالمسلة الفرعونية القديمة.. قال لي ظلي بنبرة ساخرة: لا ينجيك من هذا المأزق إلا خيالك..

قلت له: هل تسخر مني.. أجاب لا.. أريد فقط أن أقرب المسافة بين العقل والجنون..

كان الظل الآخر يتابع حوارنا بفضول وشغف بالغين.. وقبل أن يرحل، لوّح لنا بيده في الفراغ، وعاد إلى جولته النهرية.. همست لظلي الغارق في سكونه قائلة:

أربعون عاماً وأنت تطاردني.. ألم تتعب بعد؟ صمت برهة ولم يجبني.. سألت نفسي: هل تحزن الظلال على فراق أصحابها؟ وقبل أن أجد لي إجابة سمعته يقول لي بصوت حزين ومنكسر: هل تودين أن تتخلصي مني؟ قلت: لا.. لا أريد أن أتخلص منك يا صاحب، لكن ساعة الفراق بيننا قد أوشكت وآن لنا أن نفترق، دمعات حارة سقطت في النهر وكبرت مثل قطرات المطر.. أطل من خلف أشجار النخيل العالية وهج مشرق قادم من ضياء الفجر الحالم..

أشكال ذات ألوان فضية وذهبية لها بريق عجيب تتحرك وسط الفراغ وتتمايل وترقص بكسل، بينما كان ظلي يبتسم ابتسامة صفراء اللون..

وقفت بخشوع وصمت تام عند حافة النهر.. أردد أدعية قديمة من تراتيل النهر، وقلت بصوت غير مسموع على الإطلاق: أيتها الأحلام الليلية هل من مزيد....

بدأت الملامح تتضح والمشاهد تبدو جلية للعين الحالمة.. ليس لي الآن سوى رائحة النهر وصوت الأمواج ونعومة الرمال وروعة الفجر.. وقبل أن أفيق من ذلك الحلم لاح لي في الفراغ طيف أمي بوجهها الصبيح.. عند الصباح لاتزال مشاهد الحلم وأطيافه عالقة في ذهني بكل تفاصيله المتعددة الأوجه، هل كان بالفعل حلماً أم حقيقة.. اختلطت في مخيلتي أشياء كثيرة بين الواقع والحلم والخيال، فهل كنت متلهفة على ولوج تلك العوالم مرة أخرى..؟

طيف أمي لايزال حاضراً هنا لم يفارقني البتة.. وجهها الجميل كان أكثر إشراقاً رغم مسحة الحزن التي كانت تكسوه.. وقفت أحدق برهة من الوقت من خلال النافذة إلى منظر شروق الشمس الذي ينشر أشعته الذهبية فوق أوراق الأشجار الباسقة.. ضوء بهيج ينساب داخل الغرفة، صوت بعض الأوراق ترمى على الأرض، فكان ذلك موعد ساعي البريد المعتاد..

صعدت القطار المتوجه نحو وسط مدينة لندن، وبعد لحظات من تحرّكه نظرت إلى البنت الجالسة على يساري.. كانت ترسم بقلم رصاص على دفتر أبيض كبير.. اندهشت عندما رأيتها ترسم شكلاً كان مرسوماً في مخيلتي منذ مدة، لكنني لم أستطع رسمه لوجع شديد أصابني بيدي اليمنى..
اندهشت لتلك المصادفة العجيبة وأنا أنظر إليها وهي تكمل فكرتها.. لاحظت أن هناك أشياء كثيرة تجمع بيني وبينها، ملامح وجهها، نبرات صوتها، طريقتها في الكلام وحتى رائحة عطرها.. من منا قفز فوق مخيلة الآخر؟ لاحظت تركيزي على الورقة فقالت لي:

- هل يستهويك فن الرسم؟ قلت لها: نعم منذ زمن بعيد..

- لماذا توقفت عن المواصلة، أرجو ألا أكون أزعجتك ؟

- لا لم تزعجيني قط.. فقط كنت أود تجميع أفكاري المبعثرة ثم أواصل من جديد؟

التجريد قد يبدو حالة غامضة ومعقدة في كثير من الأحيان تخترق خيال الفنان وتصيبه بالقلق المزمن، ولا ينفك منها إلا بتنزيل الأفكار على سطح البياض..

قبل أن أعقب على حديثها كان القطار على وشك الوصول.. إلى محطة هايد بارك كورنر..
أعطتني بطاقتها على عجل، واتفقنا على أن نتواصل عبر البريد الألكتروني.... عند خروجي من المحطة اتصلت بي ماريكا وأخبرتني بوصول عائلتها من وارسو، قالت لي: سوف ننتظرك في المساء، فهم متشوقون إلى معرفتك، فقد أخبرتهم عنك كثيراً.. كان الطقس جميلاً في ذلك اليوم وبدا الهايد بارك في أبهى شكل ومنظر..

وبعد أن أنجزت موعدي مررت بكشك زهور قرب محطة غرين بارك..

عدت أدراجي إلى البيت عبر خط البيكاديلي المتجه صوب مطار هيثرو غرب مدينة لندن..

في المساء ذهبت إلى ماريكا، وعرفتني بأفراد أسرتها المكونة من والديها وشقيقتها الصغرى، قالت لهم ماريكا: من حسن الحظ أننا لسنا بحاجة للتخاطب بالإنجليزية بعد الآن لأن هاجر تتكلم البولندية كما أخبرتكم من قبل..

علق والدها ضاحكاً: لا تنسي أنني يمكن أن أتواصل مع صديقتك باللغة العربية دون أن تفهموا كلمة واحدة.. ضحك الجميع على تعليقه..

حكى لي والدها عن زيارته للسودان في سبعينيات القرن الماضي في عداد بعثة آثار بولندية.. قال إن التعاون البولندي السوداني في مجال الآثار يمتد فترة شارفت نصف قرن من الزمان.. تم فيها الكشف عن آثار عظيمة تتناول أزمنة تمتد إلى ما قبل الميلاد، وغطت الحفريات مدناً مختلفة من أرض السودان الشاسعة..

قلت له: للأسف معظم تلك الآثار التي تتحدث عنها موزعة الآن في متاحف عالمية، لو سمح لك الوقت بزيارة المتحف البريطاني ستجد العديد من الآثار القديمة.. قال لي: معك حق بالتأكيد إضافة إلى متحف وارسو ومتحف بوزنان ودول عديدة احتفظت بتلك الآثار تحت حجج وذرائع أقل ما يقال إنها واهية..

قلت لنفسي إذا كانت الحكومة لا تعير أدنى احترام للبشر الأحياء فهل ستهتم بآثار عمرها آلاف السنين، ناهيك أن السلطة في بعض الأحيان تنكر صناعة التماثيل والفن والرسم ولا تعير أدنى اهتمام لشيء يسمى الآثار والفنون.. وسردت له موقف أحد وزراء الثقافة الذي اقترح مرة إلباس بعض التماثيل الذكورية غطاء حتى تستر عورتها.. قلت له إنّ وضع الفن والحريات في السابق كان أفضل حالاً من الآن..

بعد برهة من الصمت أخرجني صوت والد ماريكا من حالة التفكير عندما قال:

تابعت برنامجاً من يومين على الفضائيات عن ذكرى المطرب عبدالحليم حافظ وعادت بي الذكريات إلى السبعينيات في القاهرة؛ فقد كان في ذلك الوقت في أوج شهرته وإبداعه، وكنت محظوظاً، فقد حضرت له أكثر من حفلة بالقاهرة ودمشق.. وتعلمت العربية حتى أفهم كلماته مباشرة.. سألته أي أغنية تحبها من أغانيه؟

أجاب: أغنية «رسالة من تحت الماء».. كلمات نزار قباني أليس كذلك؟ أجبته بنعم..

إن كُنت صديقي.. ساعدني

كي أرحل عنك..

أو كُنت حبيبي.. ساعدني

كي أشفى منك

لو أني أعرف أن الحب خطيرٌ جداً

ما أحببت

لو أني أعرف أن البحر عميقٌ جداً

ما أبحرت..

لو أني أعرف خاتمتي

ما كنت بدأت...

أدهشني والدها بذاكرته وحفظه لكلمات الأغنية.. بل أدهشني أكثر بمعرفته اللغة العربية.. وكانت لهجته خليطاً من المصرية والشامية بحكم عمله هناك سنوات طويلة، ودراسته اللغة العربية مدة عامين في إحدى الجامعات المصرية.

قال لي والدها بالمناسبة: لقد شاهدت أعمالك التي قدمتِها في معرض الحضارة النوبية، أطلعني عليها صديق مؤرخ بريطاني متخصص في الحضارة النوبية..

وواصل: يجدر أن أقول إنّ ما قمتِ به شيء يدعو للإعجاب والفخر بلا مجاملة، واصلي بكل ذلك الألق والجمال.. شكرته على تعليقه وكلماته المشجعة..

في تلك الأثناء كانت ماريكا تدوزن كمانها مع شقيقتها.. التي كانت تعزف الأكورديون، وبعد لحظات صاحت لوالدها نحن جاهزون يا أبي.. قال لي والدها: اسمحي لنا أن نقدم بعض المقطوعات الموسيقية على شرف هذا التعارف..

ناولته ماريكا آلة الكمان وعزفت هي على آلة التشيلو بينما شقيقتها الصغيرة كانت تعزف على الأكورديون.. وبعد لحظات طافوا بنا نحو عوالم الطرب الساحرة والعذبة..

كان بينهم نوع من التجانس والألفة الجميلة، يبدو ذلك من خلال أدائهم السلس والعذب.. كانوا يتبادلون الآلات بخفة ورشاقة زائدة كما يتبادلون الأنخاب بكل محبة ومودة، حتى الأم نفسها ساهمت بأغنية وعزفت على الجيتار.. ما أجملها من أسرة مسكونة بعشق الموسيقى لدرجة بعيدة، مهارتهم في العزف وانسجامهم في الأداء يثير الإعجاب والدهشة.. كان المشهد عبارة عن صورة فنية بالغة الجمال ذكرتني بلوحة (الجوقة الموسيقية) للرسام الإيطالي كوستا لورينزو التي أخبرت بها ماريكا من قبل.. تغلغلت تلك اللحظات الساحرة في أعماقي وسكنت داخل روحي، سيظل هذا اليوم خالداً في ذاكرتي إلى أمد بعيد، فقلت لنفسي: الآن عرفت سر إبداعك المذهل يا ماريكا..

ودعتهم بعد ذلك وقلت لهم: ما قدمتوه هو شيئ رائع بمعنى الكلمة يستحق الإعجاب، وتمنيت لهم أمسية سعيدة.. عند عودتي إلى البيت تذكرت تلك الفتاة التي صادفتها في القطار وكانت قد أعطتني بطاقتها.. بحثت عنه في حقيبتي وفي كل مكان داخل البيت لكن لم أجد له أي أثر.. سألت نفسي هل فعلاً التقيتها في عالم الواقع، أم أن الأمر برمته من محض الخيال ؟هل كنت تائهة في أحلام اليقظة ؟؟ أسئلة كثيرة تطوف في ذهني من دون أن أجد لها أجوبة شافية.. وقبل أن أنام تذكرت كلمات نزار قباني: «لو أني أعرف خاتمتي ما كنت بدأت»..

خيوط الشمس الذهبية بدأت تتسلل عبر النافذة.. رذاذ من المطر ترك أثره على زجاج النافذة.. صوت ألفا بلوندي ينداح عبر جهاز التسجيل وهو يغني أغنيته الرائعة ماسادا..نهضت بنشاط ذلك اليوم وذهبت إلى الصالة الرياضية المجاورة عند نهاية البناية.. التقيت هناك كاليستا، حيتني وسألتني عن أحوالي.. قالت لي: أراك تبدين نحيلة بعض الشيء هل أنت على ما يرام؟

- أنا بخير، ربما لم أنم جيداً منذ فترة..

- هكذا أنتم جيل الفنانين مسكونون بالقلق الدائم، أعرف هذا الشيء جيداً منذ زمن بعيد.. أخي الأكبر فنان تشكيلي ذهب لدراسة الهندسة في المجر، لكنه عاد بعد الدراسة وأخبرنا أنه تخرج في كلية الفنون الجميلة.. قال له أبي: خيراً فعلت، هذا العصر هو عصر الفنون وليس الهندسة.. ولم

نعرف حينئذ هل كان أبي جاداً أم لا.. لكن الأيام أثبتت مدى صدق رؤيته حيث فاقت شهرة أخي الحدود.. ثم واصلت:

- ما هذه الجوقة الموسيقية الرائعة في بيت صديقتك أمس؟

- تقصدين ماريكا... كنت معهم بالأمس هناك ومعها والداها وشقيقتها..

- هل تقصدين أن أفراد أسرتها يجيدون العزف وهم من عزفوا معها تلك المقطوعات؟

- نعم... إنهم مبدعون أليس كذلك؟

- معك حق هم مبدعون لدرجة تفوق الوصف والخيال.. كنت جالسة على الشرفة.. أصوات الموسيقى العذبة كانت تنساب عبر النافذة المفتوحة.. الأضواء بدت كأنها تتراقص على أثر تلك الأنغام، وأغصان الأشجار تتمايل وتحلق من شدة الطرب..

لقد أضفى عزفهم مسحة جمالية رائعة على المكان.. استبدت بي حالة من النشوة والفرح، حتى أزهار الشرفة بدت بهيجة ومشرقة تحت ضوء القمر الفضي..

لا بد أن أزورهم في البيت، الآن سأتركك يا صديقتي حتى أراك مرة أخرى.

أخبرتني ماريكا بصوت فرح عبر التلفون، بأنها تلقت رداً على بريدها الإلكتروني مساء أمس بخصوص طلبها للانضمام إلى فرقة الفنان محمد منير، قالوا لها إنهم سعداء بأن تكون أحد أعضاء الفرقة، وإنهم يقدرون موهبتها والفرقة العريقة التي تنتمي إليها.. هنأتها على هذا الخبر المفرح وقلت لها: ها هي تحققت أمنيتك.. أنتِ تستحقين ذلك بل أكثر.. قالت لي: الفضل لك يا صديقتي، أنت من عرفتني بذلك المبدع محمد منير ونصحتني بمراسلتهم.. وواصلت: قالوا لي نرحب بقدومك إلى مصر في أي وقت، ذكروا أن لديهم حفلة بعد عدة أشهر في مدينة ليفربول ويسعدهم أن تكون أول بداية لي مع الفرقة.. قلت لها: كم أتمنى يا صديقة أن أحضر أول حفلة لك مع فرقة محمد منير في مدينة ليفربول..

وصلتني رسائل بالبريد الألكتروني للمشاركة في معارض فنية بكندا والدنمارك..

رددت عليهم وشكرتهم لاختيارهم، وأوضحت لهم أنه يمكن المشاركة بأعمالي، لكن من دون حضوري شخصياً.. وذلك بسبب سفري إلى السودان لظروف أسرية، وذكرت لهم أنهم يمكنهم أن ينسقوا مع إدارة المتحف البريطاني، ورشحت لهم الصديقة التشكيلية العراقية سناء قاسم لتحل مكاني.. وتلقيت بعد يومين رسائل منهم بالموافقة ومن إدارة المتحف.. وأخبرت سناء بالعرض فردت بالموافقة..

عادت بي الذاكرة إلى ذلك اللقاء الشهري الأخير.. كنا قد التقينا في مقهى يقع عند ضفة نهر التايمز، في منطقة ريتشموند، ويفصله شارع عن حديقة ريتشموند الشهيرة.. جلت بنظري حول المكان ومنظره الساحر.. استقبلتنا النادلة بابتسامة مشرقة مرسومة على وجهها.. قلنا لها: سنطلب المشروبات بعد حضور البقية وسيكونون هنا بعد لحظات.. وبعد أن وصلوا بدأنا الجلسة واستهل الحديث عامر قائلاً: أتمنى أن يكون التغيير مرضياً لكم وأن يرضي هذا المكان ذوقكم.. واصل بعد ذلك في ورقته التي سيقدمها وكان عنوانها: تراجع دور المسرح.. من أول وهلة لهذا العنوان يبدو

أن الموضوع واضح مثل ضوء هذه الشمس.. وهو أن المسرح والحركة المسرحية في تراجع كبير.. ويمكن أن نطرح عدداً من الأسئلة ستفيدنا في أسباب هذا التراجع..

في البداية اخترت هذا الموضوع لأن هذا الشهر يصادف يوم المسرح العالمي..

ظاهرة هذا التراجع عالمية وليست محلية، أول سؤال يتبادر إلى الأذهان هو ما هي أسباب تراجع دور المسرح؟ هل أدى المسرح دوره المطلوب وأخذت منه السينما الراية وأصبحت هي نفسها قاب قوسين أو أدنى من المصير نفسه؟ في ظل عصر التكنولوجيا الذي يتقدم بخطى سريعة ويأتيك بالخدمات السريعة داخل بيتك.. ما هو دور المثقفين بصفة عامة والمسرحيين بصفة خاصة من هذا التراجع المريع؟

تحدث عامر بعد ذلك باستفاضة عن التساؤلات العديدة التي طرحها، واستشهد بعدد من الدراسات لعدد من النقاد والكتّاب... تداخل معه الحضور بآراء تصب في اتجاه النقاش.. توقفنا بعدها عشر دقائق ثم أكملنا بقية الجلسة...

في الختام قال عامر: إنّ الموضوع شائك ومترابط مع عوامل أخرى وأكبر من أن نناقشه في ساعات قليلة.. لكن الأهم هو أن نلتفت إلى ما يجري حولنا وتحت أقدامنا..

وقبل أن نغادر المقهى عرض أوليج علينا مع طاقم التصوير زيارة مدينة برشلونة مدة ثلاثة أيام لتصوير بعض المشاهد التاريخية هناك..

وافق الجميع عدا عامر الذي اعتذر لظروف سفره.. حددنا موعد اللقاء المقبل بعد أربعة، أسابيع وسيكون المتحدث فيكتور الذي اختار موضوع (حضارة المايا) وهي الحضارة التي قامت (في شمال غواتيمالا وفي أجزاء من المكسيك حيث الغابات الاستوائية وهندوراس والسلفادور، وهذه المناطق هي موطن شعب هنود المايا التي بلغت أوجها في سنة 1700 ق.م وقد كان وصول الأسبان والأوروبيين إلى الأميركيتين سبباً في تدمير هذه الحضارة..).

وصلنا إلى مدينة برشلونة الأسبانية بعد رحلة استمرت قرابة الاثنتي عشرة ساعة بالحافلة، استقبلتنا المدينة بطقسها المشرق والجميل.. المدينة ملأى بأفواج كبيرة من السياح قادمين من مختلف أنحاء العالم.. ومن حسن حظنا كان الفندق الذي نقيم فيه يقع في وسط المدينة.. شرح لنا أوليج خطة العمل التي ستبدأ صباح الغد وتستمر مدة ثلاثة أيام، وبعدها سنعود إلى مدينة لندن.. قال لنا إنّ فيكتور اتصل به واعتذرعن الحضور بسبب ذهابه في مهمة عمل إلى البرازيل.. قررنا الخروج عند العصر أنا وسناء وماريكا التي كانت تعرف المدينة لحضورها غير مرة مع فرقتها الموسيقية.. سألتني هل حضرت من قبل إلى هنا.. فأجبتها بنعم حضرت إلى برشلونة ليوم واحد فقط، وكنت في إجازة بكوستا برافا..

- إنها منطقة ذات طبيعة ساحرة وخلابة بالفعل، فقد كانت المكان المفضل للعديد من الفنانين مثل بيكاسو وسلفادور دالي... خرجنا بعد ذلك وطفنا في شوارع المدينة وأزقتها العتيقة وكانت نقطة البداية في شارع لا رامبلا الشهير المليء بالعروض الحية وعدد كبير من الرسامين.. جلسنا بعد ذلك في أحد المقاهي في شارع كاتالونيا حتى المساء ثم عدنا إلى الفندق لأخذ قسط من الراحة استعداداً للغد...

في صباح اليوم التالي استيقظنا في وقت مبكر، وخرجنا في بداية أول يوم للتصوير واستمررنا على هذا الوضع حتى اكتمل تصوير كل المشاهد واللقاءات.. ذكر لنا أوليج أن فيلمه الوثائقي هذا يتطلب الذهاب إلى أكثر من سبع دول.. وقال إنّ الفيلم في بعض الأحيان يستغرق تصويره أكثر من عام... وفي آخر يوم للتصوير دعانا لحضور أمسية موسيقية أحيتها فرقة فولكلورية غجرية قدموا فيها أغاني ورقصات مصاحبة لموسيقى الفلامينكو بشكل مثير للإعجاب.. كانت الفرقة ترتدي زياً موحداً، عبارة عن فساتين ملونة واسعة ومزركشة؛ الراقصات لهن خصل شعر سوداء طويلة.... أجسادهن تتراقص بخفة ورشاقة في الهواء مثل الدمى، لمحت وشماً غجرياً على ظهر إحدى الراقصات، وتذكرت علم الغجرالذي تتوسطه عجلة مستديرة الشكل قد ترمز إلى السفر والترحال.. رائعون أولئك الناس في كل شيء حتى في أدق اختياراتهم، ليس بغريب أن يكون الغجر هم أصل هذا الفن في أسبانيا.. لقد أخذ الغجر من الهند عشقهم للموسيقى والرقص، فعندما دخلوا أسبانيا في منتصف القرن الخامس عشر تبنوا أسلوب الكانتي خوندو الأندلسي وأضفوا عليه المزيد من الحماسة، كذلك يبدو أثر الرقص الهندي واضحاً في رقص الفلامنكو.. كم كنت محقاً يا عامر عندما كتبت عنهم، فروحك حالمة ومتمردة مثلهم.. قال لي ذات مرة: الغجري يحمل معه آلته الموسيقية أينما ذهب.. ينسى ظله خلفه ولا ينسى كمانه أو الأكورديون وهما من آلاتهم المحببة.. تقول إحدى أغانيهم التي يرددونها بصفة مستمرة في كل مكان:

« لم أعرف أبي قطّ

وليس لي أصدقاء

أمي ماتت منذ زمن بعيد

وحبيبتي غاضبة

أنت فقط يا كماني رفيقي الوحيد

الذي يصحبني في العالم

لن أهتم وقلبي ينفطر من الحزن

وجيبي خالٍ من المال

طالما أعزف أغنيتي عليك

يا كماني العزيز

فإن حزني يتبدد،

ولا أحس بالجوع»

لمحت ماريكا مستمتعة بشدة بهذا المشهد، والطقوس المدهشة لعالم الفلامنكو..

عند صباح اليوم التالي كنا متأهبين لرحلة العودة إلى لندن، شكرنا أوليج على إتاحته الفرصة لنا لقضاء تلك الأيام الرائعة.. ودعتنا ماريكا لأنها كانت بصدد السفر إلى ألمانيا حتى تلحق بفرقتها هناك لمشاركتهم في مهرجان موسيقي بمدينة هامبورغ.. وصلت إلى البيت عند الساعة الثامنة مساء.. كان الطقس ممطراً كعادة مدينة الضباب، وأول شيء فكرت أن أقوم به هو أن أنام مباشرة

حتى أتخلص من تعب السفر الذي يتسرب في جسدي.. لم أصحُ إلا عند صباح اليوم التالي عند الساعة العاشرة صباحاً.. وبينما كنت أرتب بعض الأوراق المبعثرة في البيت، لمحت الظرف الذي تركه عامر معي والذي يحتوي على خمسة نصوص مسرحية مكتملة، ومجموعة من القصص القصيرة، نشر منها البعض والبقية لم تنشر من قبل، إضافة إلى مقالات وخواطر وقصص قصيرة جداً.. تذكرت عامراً عندما قال لي: لك مطلق التصرف في هذا الملف بعد أن تطلعي عليه، ولك الحق في نشرها أو تمزيقها.. اطلعت على أحد النصوص وعنوانه: (سيرة الجد العائد وأنغام السالسا) وفيه:

«بعد خمسين عاماً من الشتات في أصقاع مدن أميركا اللاتينية ها أنذا أعود مرة أخرى إلى هذهالمدينة التي ولدت فيها.. تمضي السنوات مُسرِعة كلمح البصر، كم هي قصيرة حياتنا في هذا العالم..

بعد أن صفيت أعمالي في سانتياغو وتبرعت بمكتبتي الضخمة للمكتبة العامة بالمدينة، كتبت وصيتي وهيأت نفسي لأدفن هنا في هذه البلاد التي احتضنتني طوال الخمسة عقودالماضية، ورتبت لنفسي مقبرة منذ عشر سنوات، لكن يبدو أن قابض الأرواح نسيني إلى حين..

رسالة واحدة من خمسة أسطر من حفيدي الصغير.. غيرت كل مجرى حياتي وقدمت مباشرة إلى هنا دون تردد.. فقد طلب مني أن أعود إلى لندن لحضور زواجه، قال لي إن طلبه هذا هوأمنية حياته الوحيدة، لم أخيب ظنه، ورغبت أن أدخل الفرحة في نفوس هذه العائلة..

هكذاهم البشر حالمون برؤية الشخص الغائب حتى لو كان إنساناً ضالاً مثل حالتي..

لقد فرحوا بقدومي بشدة وذرفوا الدموع.. وأقاموا احتفالاً صاخباً ذلك المساء في منزل العائلةالكبير في ضاحية ريتشموند غرب مدينة لندن.. في يوم الزواج قدمت لهم هديتي، تذاكر سفروشهرعسل في فندق من خمس نجوم.. على شواطئ كوكوبانا الخلابة قلت لحفيدي مازحاً: «أرجو ألا تطيل غيبتك مثلما فعل جدك»، ضحك ومعه الحضور وقال لي:

- سأعود حتى أكمل حديثي معك الذي لم يكتمل بعد ونواصل تدوين مذكراتك..

كنت محتاجاً إلى شهر حتى أستوعب عودتي المباغتة إلى هذه المدينة.. ومحتاجاً إلى عام كامل حتى أحفظأسماء الأهل والأقارب والأصدقاء الذين ظلوا يتوافدون على البيت لرؤيتي كأنني عائد من الموت وليس من سفر طويل امتد عقوداً من الزمن، وأصبحت كالمزار يأتيه المريدون من كل صوب.

هرمت الذاكرةوأصبحت لا تحتمل حفظ كل هذه الأسماء.. دخلتها لغات عديدة أسبانية وبرتغالية ولغةالهنود الحمر أصبحت أجيد تلك اللغات أكثر من الإنجليزية لغتي الأم..

تذكرت تلك العرافة العجوز العمياء التي صادفتها في أحد أزقة بوغوتا العتيقة.. بمجرد أن ألقيتعليها التحية حيتني باسمي كأنها تعرفني من قبل قالت لي بلا مقدمات:

- قدرك يقول إنك ستعود إلى بلادك البعيدة هناك مرة أخرى..

- قلت لها بدهشة: بعد كل هذه السنين الطويلة ؟

- نعم، بعد كل هذه السنين الطويلة..

وواصلت كأنها تريد فك طلاسم الحيرة من ذهني بقولها:

- هكذا تقول صفحة قدرك ومستقبلك وليس تأويلي..

لن تدوم الرحلة هذه المرة مدة طويلة مثلما جئت المرة الأولى على ظهر سفينة..

قلت لها: مثل مصيرنا في هذه الحياة، نأتي بعد مخاض وننسحب بهدوء وبسرعة فائقة.. طوال أسبوع كامل لم أغادر البيت، كنت متردداً في زيارة مكان واحد.. ظل محفوراً في ذهني زمناًطويلاً وهو المكان الذي فقدت فيه زوجتي حياتها بسبب حادث سيارة طائشة..

لم يغب ذلك اليوم عن ذاكرتي.. كنت أجلس بانتظارها في متجري وسط المدينة لكنهالم تحضر حسب الموعد المتفق عليه.. وكنت أعلم أنها تقدس الزمن ولا تتأخر إلا بسبب أو مانع يحول دونقدومها.. انتابني نوع من القلق والريبة فأقفلت المتجر وعدت مسرعاً صوب المنزل وعلمت بعدهابنبأ الحادث الرهيب.. حزمت أمري للخروج وحيداً لزيارة مكان الحادث وإن كان المكان قد طرأعليه تغييرات كثيرة إلا أنه حافظ على شكله العام.. تذكرت تفاصيل ذلك اليوم كأنه كان بالأمسالقريب.. شيء فظيع أن تفقد حياة إنسان عزيز عليك تكتوي بذكراه طوال حياتك..

بعد تلك المأساة التي حلت بي ونهاية الحرب العالمية الثانية المجنونة كنت مكتئباً لدرجة أنني فكرت في الانتحار أو مغادرة هذه البلاد.. كنت بحاجة إلى مغامرة تنسيني ذلك الواقع البغيض،فرجحت كفة الهجرة على كفة الموت، لا أدري هل كان قراري ذلك جبناً وخوفاً أم هو تشبثبالحياة وإن كانت لا تستحق أن نتمسك بها إلى ذلك الحد ما دامت النهاية كانت معروفة..

بعد أسبوع أقفلت المتجر وصفيت أعمالي وأوكلت على عجل مهمة تربية أولادي إلى شقيقتيالصغرى التي كانت تحبهم جداً، وتركت لها ما تبقى من ثروتي وقلت لها:

- إني سأغادر هذا البلد، وسأترك لك مهمة تربية الأولاد ولا أدري هل سأعود أم لا..

- إرحل ولا تحمل همهم يا أخي.. وتعرف أن لو كان لي أولاد فلن أحبهم أكثر من أولادك، فهم كل حياتي..

بعد أسبوع ركبت سفينة كانت متجهة صوب فنزويلا.. وبعد شهرين من الإبحار وجدت نفسي فيمدينة كاراكاس، ومنها اتجهت صوب تشيلي حيث أقمت هناك مدة خمسة عقود، وتنقلتبعدها، فذهبت إلى جزر الكاريبي بسبب العمل أو الزيارات المتكررة، لكن ظلت سانتياغو المدينةالمحببة إلى قلبي، حضرت فيها أحداثاً هامة جداً من تاريخ تشيلي السياسي.. أثرت فيشخصيتي مثل انقلاب العسكرعلى حكومة سلفادور الليندي المنتخبة من قبل الشعب، وخطابه الأخير المؤثر الذى ألقاه على مسامع شعبه..

منذ الصغر كنت مسكوناً بعشق الموسيقى وأصبحت مغرماً بالسالسا.. إني أجيد الرقص مثل أي محترف، فقد أتاحت لي فرصة وجودي في أمريكا اللاتينية الاطلاع على تلك العوالمالصاخبة والرحبة من قرب..

عاودني حنين جارف إلى سماع تلك الموسيقى الحالمة في نادي سالسا في شارع جارنغ كروس روود في وسط لندن، كان النادي يضم رواداً من مختلف الأعمار، ومن حسن حظي كانهناك

البعض في مثل عمري.. طلبت مني امرأة أربعينية أن أشاركها في الرقص، علمت فيما بعد أنها من بورتوريكو.. وكان جمالها مثيراً للدهشة والإعجاب قلت لها:

- من قال لك إنني أجيد الرقص..

- ردت بضحكة بريئة:

- لا يمكن أن تكابد عناء الحضور إلى هنا لو لم تكن محترف فن الرقص.. وواصلت: سمعتك تتحدثالإنجليزية قبل قليل، وكنت تغني بالبرتغالية مع ويلي ريفيرا، والآن تخاطبني بالإسبانية من أين أنت؟

- قلت لها بابتسامة: هل تابعتِ كل هذه المشاهد دفعة واحدة.. ماذا أقول لك؟

آه... حكايتي شرحها يطول، أنا من هنا ومن هناك في الوقت نفسه، هل فهمتِ قصدي؟ ودعتها بعد أن تركت بقايا عطرها النافذ وأنفاسها في روحي، أما تفاصيل جسدها الساحر فهو سر عظيم لن أبوح به الآن، سأنتظر حتى يأتي حفيدي ويدون هذا الفصل الهام في الباب السابعمن مذكراتي (خمسة عقود في الكاريبي).. خرجت من النادي، وفي الطريق كانت أذناي تطربانلسماع صدى موسيقى السالسا وإيقاعاتها الشجية..

كان جرس الموبايل يرن مرات عديدة.. كان المتصل أوليج، سألني عن حالي بعد إرهاق يوم أمس من السفر الطويل.. صمت برهة من الوقت ثم قال لي: لا أعرف ماذا أقول لك يا هاجر.. لكن أحمل لك نبأ سيئاً.. اتصل بي صديق مقيم في البرازيل أخبرني بأن فيكتور توفي في حادث طائرة مساء أمس.. هل أنت متأكد يا أوليج؟ نعم.. اتصلت بصديق مشترك هنا وأكد لي الخبر قبل قليل.. سأتركك الآن لكي أقوم ببعض الاتصالات.. آسف لنقل هذا الخبر المؤلم لك.. لا عليك سأتصل بسناء الآن، ومن ثم نتصل بك مرة أخرى لنرى ماذا نفعل..

كم هو مؤلم هذا الرحيل المفجع لقد.. نزل عليّ الخبر كالصاعقة.. ذهب عامر إلى السودان واختفى في ظروف غامضة لم يعرف مصيره بعد حتى الآن.. وها هو صديقه فيكتور الذي عرفنا به رحل في حادث مأسوي.. هكذا تمضي أيامنا في هذه الحياة، نمضغ فيها الصبر كالعلك حتى لا نفقد صوابنا.. نسير في طرق مرصوفة بالأوجاع والألم، ونقلب دفاتر ذاكرة مجروحة يسيل منها اللون الأحمر بلا توقف..

انتابتني حالة فضول لمعرفة المزيد عن حضارة المايا.. التي كان يُفترض أن يقدم فيها فيكتور ورقة في اللقاء القادم الذي لن يحدث أبداً.. ذهبت إلى المكتبة العامة التابعة لجامعة لندن واستلفت بعض الكتب والمراجع التاريخية عنهم وأفلاماً وثائقية، واتصلت في اليوم التالي بصديقتي هيلين فلم تبخل عليّ بمعلوماتها الغزيرة عن حضارة المايا.. ووعدتني بإرسال المزيد من المعلومات عبر الإيميل...

أقام أصدقاء فيكتور يوم عزاء على روحه، حضره الكثيرون من زملائه بالجامعة ومعارفه.. تخلل ذلك اليوم كلمات كثيرة قيلت عنه.. ومواقف إنسانية نبيلة عرفناها عنه لأول مرة، وتليت على الحضور كلمة الأسرة التي أرسلت عبر البريد من شقيقه الأكبر قال فيها كلمات مؤثرة هزت مشاعر الحضور.. عندما يرحل أحد الأصدقاء نشعر بحزن وأسى بالغ.. نشعر بأننا فقدنا جزءاً

منا.. عدت إلى البيت في المساء وكنت مرهقة لدرجة الإعياء وشعرت بصداع نصفي لازمني منذ الصباح.. كان من الصعب أن أرقد دون أن أتناول بعض الأقراص المنومة...

طقوس الغياب

أفق مفتوح على مصراعيه أتأمل النجوم في هذا المساء.. وأتابع خط سيرها ببطء وأناجي ضوء القمر في هذه الليلة الحالمة.. عُدت تواً إلى البيت بعد جهد يوم طويل من العمل في إحدى الورش الثقافية المشتركة.. جلست على الأريكة أقلب دفتر ذكرياتي بكثير من التمعن وقليل من التركيز، أشعر بتعب شديد وألم يتسرب داخل جسدي.. امتطيت صهوة أوجاعي وبدأت مغازلة آلامي الكثيفة.. وقلت لليل: هل تعيرني صبرك الطويل لأقتل به شبح الآلام الحادة التي تنخر جسدي النحيل؟ لم يجبني، فقد كان غارقاً في صمته المعدني.. وحدي أنا من يعرف الألم أشعر به ملتصقاً بجسدي مثل وشم الغجر ويطاردني كالظل أينما ذهبت.. هل اعتدت رفقته لي في كل الأمكنة وصِرت أفتقده حين يبتعد عني لثوانٍ معدودة.. هل تعودت الوجع وأدمنته.. هكذا كنت أسأل نفسي دون أن أجد أجوبة..

لا أزال أشعر بخدر وتنميل في يدي اليسرى وجسدي يرتعش من الداخل.. هل حولني المرض إلى كائن ليلي بامتياز وكبرني قرناً من الزمان وأصبحت لا أقوى على تحمل الضوء.. هل أصبحت سليلة الصمت والعزلة والعتمة؟ الصمت رفيق الليل الأزلي، والعزلة أنيسته المفضلة، والعتمة ميراثه الثقيل هكذا كنت أقول..

هل أصبحت أعيش الآن على الحافة؟ حافة الزمن، حافة المكان، حافة الألوان، حافة الإطار، حافة الحياة، حافة العالم، حافة اللغة، حافة الشعر، حافة الكلمات، حافة الماء، حافة النهر، حافة الحلم، حافة الهذيان، حافة التيه، حافة الجنون، حافة الغياب..

الريح لا تمل الصفير فهي تهمس من البعيد في آذان سحب تائهة في الفراغ:

ما أطولها من ليلة وما أجمله من صبر.. تلقيت اتصالاً يوم أمس من طبيبي كان قد طلب مني الحضور لمقابلته، ذهبت إليه في اليوم التالي وكانت العيادة شبه خالية من المرضى.

بعد أن حياني وسألني عن صحتي وأحوالي، خرجت كلمات بصعوبة من فمه بالرغم من أنه حاول أن يبدو متماسكاً بإخفاء أحاسيسه إلا أن مشاعره كانت أقوى من أن تحبس.. لم يتبق لديك الكثير من الوقت.. كلمات صادمة، لكني كنت أتوقعها بلاشك.. حاولت أن ألطف الجو، قلت له: هكذا هي الحياة، لا أحد سيخلد فيها للأبد.. تتعدد الأسباب والنهاية واحدة أليس كذلك؟ حتى لو كانت صحتنا تساوي قوة ألف حصان، فكل شيء سيعود بإيقاع دائري رتيب إلى بدياته الأولى، هكذا القدر غالباً ما يخبئ لنا مفاجآت كبيرة حتمية من العيار الثقيل..

هكذا علمني المرض أن أتأقلم مع الظرف وأخوض التجربة بصبر حتى النهاية..

قال لي: أمثالك سيخلدون في ذاكرة الناس بكتاباتهم وأعمالهم الفنية الرائعة.. شكرته على لطفه وكلماته واهتمامه وودعته، رد بحياء بالغ.. لم أقم بغير الواجب وليتني أفلحت، هذا هو قدري ومكتوب لي هذه النهاية قبل أن أولد.. قبل أن أخرج رأيت ملامح حزن تبدو على عينيه، قلت له: إسمح لي أن أقدم لك هدية هي لوحة من لوحاتي.. حينئذ فرح بشدة وقال لي: أشكرك جداً على هذه اللوحة الجميلة التي ستزين صدر هذا المكان.. غادرت العيادة وأنا تائهة بعض الشيء، بذاكرة

متعبة ومخيلة منهكة بالتفكير.. بدأت ترتيب أجندة أفكاري الداخلية.. هل أريد أن أنام وأنسى كل شيء في هذه الحياة، أم كنت بحاجة أن أفرغ روحي من كل الهموم والذكريات.. مشوار العودة من العيادة شعرت به أطول مسافة أقطعها في حياتي.. شعرت كأن الزمن توقف عن الحركة.. لم أسمع أي شيء مدة من الوقت، لا أصوات المارة ولا أبواق العربات التي كانت تسير ببطء غريب.. أرى ظلالاً تتحرك خلسة كالأشباح في الشارع.. كل شيء يبدو غريباً.. حتى أنا نفسي أشعر أنني أصبحت غريبة عن هذا العالم.. هل كنت في هذا العالم يوماً من الأيام أم أن الأمر برمته محض أوهام وخيال؟ أيها الجسد المشبع بالتعب لم يبق لديك الكثير من الوقت وستتحرر في القريب من أسر الوجع، وتتلاشى مثل طيف الحلم العابر في جوف الظلام.. ثلاث سنوات من الانتظار وها قد شارفت النهاية تلوح بشدة في الأفق.. الإنسان بحاجة أن يتأقلم مع الضوء الخفيف ودروب العتمة والصمت الطويل.. بعدها تحل السكينة في قلبه ويتأقلم مع كل شيء..

لقد أصبحت خلال الفترة الأخيرة أعيش في حالة شبه معزولة عن العالم الخارجي.. وينعدم التواصل في كثير من الأحيان حتى من خلال الهاتف أو عبر البريد الألكتروني.. جسدي النحيل لم يقوَ على تحمل جرعات العلاج، تفاصيل كثيرة وذكريات تنساب من حولي تحوم وتتردد في متاهات الفراغ بلا توقف، هل سيمنحني الوقت هدنة أم أنني في سباق سريع مع الزمن.. في غمرة اليأس والضياع هذه حضرني طيف جدي.. أعطاني كوباً من الحليب.. طلب مني أن أشربه.. طعمه عجيب لم أذق مثله طوال حياتي، وضع راحة يده على رأسي وتمتم بلغتنا النوبية القديمة ثم قال لي: هل قرأت الكلمات على شاهد قبري يا حفيدتي الصغيرة؟

انتابتني حالة رضاء وتصالح تام بعد هذا اللقاء ومعرفتي للسر الذي منحني إياه جدي قبل أن يتلاشى طيفه ويرحل في عالمه البعيد ..

شعرت بحاجة إلى أن أغطس هناك داخل النهر برهة من الوقت حتى تزول كل الأوجاع الساكنة في الأعماق، هل هذا ما كانت تسميه جدتي بكرامة النهر أنه يطهر الآلام ويبعد الأحزان ويجعل المرء يولد من جديد.. تذكرت كلماتها عن طقوس أجدادنا القدماء في أرض النوبة وارتباطهم العميق بالنهر في المناسبات العديدة مثل الميلاد، الختان، الزواج والوفاة.. تلك الطقوس أطلق عليها علماء الأنثروبولوجيا اسم (طقوس العبور)..

كانت تلك الطقوس نابعة من قناعاتهم التامة بأن النيل واهب الخير والبركة، وأن مياه النهر تساعدهم على علاج الكثير من الأمراض.. وجاء في الموروث الصوفي عن كرامات أحد الشيوخ المرتبطة بالنيل:

«أنه حين أراد أن يقطع النهر لزيارة شيخه الأكبر لم يجد مركباً لكي يعبر به إلى الضفة الأخرى من النهر، فمشى هو وأتباعه في داخل الماء حتى خرجوا عند الضفة الأخرى».

كثيرة هي القصص والحكايات والأساطير والكرامات.. المرتبطة بالنيل فهي كثيرة لا تحصى ولا تعد .

****

ها أنذا وحيدة أمام محنتي وقدري، لم أكلم أحداً فترة من الزمن، حتى كدت أنسى نبرة صوتي.. تنتابني الآن لوعة الكلام والحنين إلى طبقات الصوت..

ألوذ في قوقعة الصمت الرهيب مُنغلقة في دوامة عزلة شبه أبدية أتمرن في التأقلم معها على فصل الغياب الأكبر، تتسع مساحات الصمت وتطول حبال الصبر حتى تفوق أبجدية الزمان والمكان..

جدران المنافي هذه لها أثر كبير في حياة البشر، حاضرة معهم في كل الأوقات تحاصرهم باستمرار.. واقفة بشموخ وأنفة مثل النصب التذكاري.. قد يبدو الوضع مغايراً لنمط الحياة هناك حيث العلاقة مع الجدران عابرة.. الجدران هنا تعني الصمت، العزلة، المنفى، الغربة، الوحدة، الجنون والغياب.. أيتها الجدران أنا أتكلم وأنتِ لا تسمعين.. من قال إنّ الكلام من ذهب؟

أشحذ بقايا الذاكرة المتعبة بسكين الصبر، تحتضنني موجة على صدرها الرحب قادمة من هناك فقلت بهمس: كم كنت بحاجة إليك أيها النهر العظيم.. كي أغسل أوجاعي بنورك الفضي وأسبح في جوفك العميق..

أتمعن في الشوارع والبيوت، سألت نفسي: هل إحساسنا بالأمكنة والمدن يفوق إحساسنا بالبشر أنفسهم؟ لم أجد إجابة في مخيلتي ولا حتى في وجوه المارة المسرعين.. صمت نهاري طويل أبتلع أصوات الباعة وضجيج المارة وصخب العربات وأبواقها..

عند مروري قرب مقهى (كافيه نيرو) صافحتني رائحة القهوة فشعرت برغبة شديدة في تناول فنجان منها.. تربطني ذكريات رائعة بهذا المقهى، وتنتابني حالة حنين وشوق لا أدري ماهيتها.. هل هي مصادفة، فقد كان الشهر ذاته الذي يصادف عيد ميلادي، كان أبريل في بداياته ومزاجه كان متقلباً كعادته.. تأتي الأربعة فصول في يوم واحد، يحدث هذا في مدينة الضباب...

المطر حاضرعلى الدوام في هذا البلد، سجلت بعض الملاحظات على الدفتر الأزرق.. حكي هادئ وسلس بين القلب والروح وحوار طويل لمونولوغ داخلي من الذات إلى الذات، هكذا اقتربت من دخول بوابة أسئلتي الحائرة التي تبحث عن أجوبة بيضاء ونقية كضمير حمامة صغيرة لم تتعلم بعد أبجديات التحليق في الفضاء الواسع..

هل قلت إن حياتي كانت قصيرة لكنها حافلة بالآلام.. بين الحياة والموت مسافة قصيرة من الضجر والملل.. بين المنفى والمنفى خيوط من التيه والعذاب.. جدران تشكو الصمت، جسد يشكو التعب، روح تشكو الفراغ، وليل يشكو طول الانتظار..

هل سألت نفسي من أنا؟ سؤال لم أجد له إجابة طوال حياتي حتى الآن.. لا في أجندة روحي ولا في قاموس معرفتي البسيطة بهذا العالم..

حضرني في تلك اللحظة طيف شقيقتي الصغرى بملامح وجهها الطفولي.. كانت مرتدية فستاناً طويلاً ناصع البياض كالثلج، قالت لي إنها مشتاقة إلي.. قلت لها شوقي إليك لا تصفه الكلمات، لقد دَخَلَنَا حزن عميق بسبب رحيلك.. أجابت: أعلم لكنه قدر الإنسان.. قلت لها كنتَ تسكبين البهجة والفرحة في قلوبنا بصدى حديثك وضحكاتك العذبة التي ترد الروح، والتي لاتزال تتردد في أذني وأحفظها في ذاكرتي عن ظهر قلب.. وقبل أن أرتوي من جمال حضورها وحديثي معها غاب طيفها عن المكان..

شعرت ببرودة تسري في جسدي لكن كنت متدثرة جيداً بثوب العزلة الدافئ، هل كنت أكلمك أم أكلم نفسي.. أعادني صوت النادل إلى عالم الواقع وهو يخاطبني:

- عفواً.. ها هي قهوتك وآسف لقطع حبال أفكارك..

رائحة القهوة تنعشني وتعيد توازني المفقود.. حدقت إلى البعيد وظللت هائمة أبحث عن خبايا التيه وأسرار الغياب في دهاليز العدم، خلف كواليس الوجع حشدت طاقتي للحركة.. قدماي تائهتان في الأرض.. يمتد الطريق وتتسارع الخطى بإيقاع منسجم صوب نهاية المشوار... صوت داخلي يردد بهمس: لا تدعي الحنين ينهش روحك.. طوبى لهذا الحنين الذي يلف روحي بخيوط من الوجع.. هل كان هناك ضباب ناعم وشفاف يملأ الفضاء الواسع.. أم أن الطقس كان مائلاً نوعاً ما للبرودة... كل ما أذكره أنني غسلت صدري بهواء منعش وبارد وطاردت عيناي ظلالاً هاربة كانت تتسكع عند عتبات الفراغ..

لم يكن أمامي خيار سوى حجز تذكرة ومغادرة هذا البلد.. متجهة صوب الوطن في أقرب فرصة ممكنة.. لا أود أن أكون عبئاً على أحد هنا، ولم أخبر أحداً على الإطلاق بظروف المرض وملابساته..

تغير شكل إيقاع حياتي رأساً على عقب.. أحاول جاهدة أن أحرر نفسي من القيود التي فرضها عليّ المرض، أياماً كثيرة أكون غائبة عن الوعي بعد جلسات العلاج..

قالت لي الممرضة ذات مرة إنني كنت أهذي وأتحدث بلغات مختلفة، وكنت أسألها في أي يوم نحن؟ منذ متى وأنا هنا في المستشفى؟ تلاشى إحساسي بقيمة الزمن والوقت..

كلفت صديقتي العراقية سناء قاسم متابعة إنهاء عقد البيت.. وشحن بعض أغراضي إلى السودان ولم أخبرها بشيء.. سوى ظروف أسرية اضطرتني إلى السفر، وكنت متأكدة أنها ستقوم بالواجب على أكمل وجه..

كتبت رسالة طويلة لماريكا، وطلبت من شقيقتي أن تقوم بإرسالها بعد أن أمضي هناك صوب الضفة الأخرى.. شرحت لها بعض تفاصيل حياتي الأخيرة وظروف المرض الذي أصابني، وقلت لها لم أقوَ على إخبارك حتى لا أدخل الحزن والألم إلى نفسك، وأكيد أنك عرفتِ الآن أين كنت أختفي منكم أياماً وأسابيع دون أن تعرفوا مكاني.. بلغي محبتي وسلامي إلى أسرتك وإلى الصديقة كاليستا.. كتبت رسالة أخرى عبر الأيميل للصديقة هيلين اعتذرت لها عن عدم تمكني من التقائها في لندن أواخر الشهر المقبل.. وذلك نسبة لسفري إلى السودان لظروف طارئة، وقلت لها: كم كنت أود أن ألتقيك لكن ليس باليد حيلة.. وذكرت لها بأن الصديقة سناء ستسعد كثيراً بلقياها ومرافقتها طوال فترة إقامتها بلندن.. وكانت هيلين بصدد إقامة معرض فني إضافة إلى محاضرتين بمدينة مانشستر..

في أول الليل يبدأ الوجع في النزول بكثافة.. ويهطل كالمطر ويتسرب بهدوء في الجسد.. سكون الليل يحرك الأشياء الكامنة في أعماق النفس.. وتتردد أصوات من الأعماق السحيقة.. أصوات موسيقى حالمة تنساب في دواخلي وتتغلغل في روحي.. بلسان هائمة كنت أناجي طيف حبيب لم تأتِ به المصادفة بعد.. تتوق إلى لحظات حب جارف لا يعادله سوى فيضان النهر في أشد لحظات جنونه.. أيتها المصادفة امنحيني من عطاياك وفيض كرمك السخي..

تنسمت عبق أزهار الياسمينة التي تفوح من شرفة جارتي اليونانية، نظرت إلى ذلك الفضاء الواسع وغفوت في حلم جميل..

صار جسدي خفيفاً كقبضة هواء في كف الريح، شعرت بأنني أحلق وأعلو كطائر فوق السماء وأرحل مع الغيوم البيضاء، تحررت روحي وحلقت في الفضاء مثل فراشة صغيرة ضلت طريقها في دروب الأفق، غمرني إحساس بالخدر وتسربت طمأنينة عجيبة هبطت في دواخلي وانفصلت عن الواقع.. شعرت بعدها لا الزمان زماناً ولا المكان مكاناً.. اجتاحني سكون النهر العذب وأحالني في ثوان معدودات إلى عوالمه النقية، شعرت بجسدي كأنه انزلق مني بغتة في مياه النهر.. أمواج النهر ومياهه الدافئة كانت تداعب تفاصيل جسدي الفارغ إلا من التعب والألم، أسمع ابتهالات وأناشيد تتردد من الأعماق تتلوها أصوات ملائكية، حشُود من الظلال تتراقص على خطى إيقاع تلك الأهازيج المدهشة، حملتني موجة تائهة بين ثناياها وأخذتني معها إلى العوالم القصية، طافت بي في رحلة استكشافية عميقة في قاع النهر.. كنت أبدو مثل الطفلة الصغيرة أنظر بلهفة وشغف إلى تلك العوالم، رأيت ما لم أره من قبل في حياتي ولا أزال حتى الآن أسيرة تلك اللحظات، مشاهد ساحرة حملتها معي في دواخلي وأحتفظ بها في ذاكرتي السرمدية.

هل كنت متلهفة على عناق تلك اللحظة منذ زمن بعيد، حيث سأرسم لوحاتي التي لم أنجزها وقصائدي التي لم أكتبها.. هل صفيت تجربتي مع الحياة وأصبحت الأيام تتسرب وتمضي سريعاً نحو أتون الغياب، هل فقدت الحياة بهجتها وبريقها وظلت روحي تائهة على تخوم النهايات ولم أعد أنا نفسي كما كنت، كل شيء سيتغير في هذه الحياة ويعود إلى مبتداه بشكل دائري، الذكريات تأتي دفعة واحدة وتغرقني في دوامة من الحنين والحزن تعتصر الروح بشدة (حنين جوانا يحكي وشوق جوانا يبكي..).

ضوء ناعم ينسكب على الكتب الملقاة فوق الرفوف.. وعلى بقايا الأوراق المُبعثرة هنا وهناك، وعلى لوحة معلقة في الجدار.. تمعنت في جمالية ذلك المشهد الفوضوي.. سألت نفسي هل اللوحة هي حصاد الخيال وبنت الفكرة.

قبل أن أنام كان عليّ أن أسقي الأزهار والشجيرات الصغيرة.. عند الشرفة شربت فنجان قهوة كنت بحاجة إليه.. القهوة رفيقتي في كل الأوقات.. أحاول أن أفرغ ذهني من تفاصيل كثيرة ليست ذات جدوى.. هل أضحت ذاكرتي متعبة وانتقائية تتذكر تفاصيل بعيدة وتنسى الحاضر القريب؟..

أحمل حنيناً إلى الشرفة نافذتي إلى العالم حيث السماء الزرقاء والأفق الرحب، كم كانت تربطني بها علاقة حميمة، فهي العين الثاقبة بين الداخل والخارج، المرئي واللامرئي، البعيد والقريب، الظاهر والخفي، الحضور والغياب..

نظرت إلى المحراب بشرود وأنا سأودعه للمرة الأخيرة خلال أيام قليلة، يرتبط الإنسان بألفة حميمة بالمكان الذي يسكنه فترة من الزمن.. لكن عندما يلوح وجه الغياب من البعيد ويرفع يده عالياً مثل حكم المباراة، يتخلص المرء من كل هذه الارتباطات في ثوان معدودة....

وددت كتابة بعض الأفكار لكنني لم أستطع.. الآن فقط أصبحت أشعر بحرية لم أشعر بها من قبل.. هل كانت الحياة مملة ولا تطاق إلى هذا الحد؟هل نكتب لنقاوم الغياب؟ أم لنتحرر من عبء الحياة؟ أم أننا نحاول خلق عالم بديل أفضل من عالم الواقع الذي نعيشه الآن بكل رتابته وعاديته وإحباطاته المتكررة؟ يقول صوت من البعيد: بوسع الخيال وحده أن يمنحنا عالماً أجمل وواقعاً أرحب..
صوت أذان الفجر العذب عبر المنبه اخترق سكون الصمت وغمر غياهب الروح بالرحمة والسكينة..

الشُرفة غارِقة في جو ممطر وأوراق الأشجار تتمايل وتتساقط على الأرض بمزاج فوضوي، صوت موسيقى إغريقية عذبة يأتي من شرفة كاليستا المجاورة... شعرت كأن حزن العالم كله تجسد في تلك المقطوعة .

نهضت في الخامسة صباحاً، فتحت عيني على ضوء شفاف ينفذ عبر النافذة.. اختلطت حبات الضوء بجسدي المثقل بالتعب.. شعرت كأنني لم أنم قط.. رأيت المطر في الحلم يهطل بغزارة فصحوت.. ها أنذا أصغي إلى إيقاع المطر الذي يهطل في الخارج منذ ليلة الأمس.

ظللت شاردة أحدق إلى بقع الضوء الصغيرة، حاولت جاهدة أن أحرك جسدي ونهضت من الفراش بأعجوبة.. ثمة أوراق مبعثرة هنا وهناك على الطاولة وعلى الأرض.. جلست أمام المرآة.. حاولت النظر إلى وجهي.. بدوت كأني شخص آخر من شدة الإرهاق والتعب، قلت للجدران البيضاء من علمك أسرار الصمت وطقوس العزلة، جالسة هنا من خلف النافذة أنظر نحو الأفق الواسع تحيط بي الألوان وبقع الضوء وحبيبات المطر الذي لايزال يهطل..

لذت بصمتي في أقصى ضفاف الروح.. عندما كانت الأشجار تغازل بعضها بعضاً بنشوة وفرح ومحبة.. تفوح من الأرض رائحة منعشة مصحوبة بهواء نقي.. يأتي بعد انتهاء المطر، ذكرتني برائحة الدعاش في السودان (رائحة التربة بعد هطل المطر..).

أطل وجه الغياب بلا مقدمات من بعيد.. كان يتفحصني على مهل كأنه ينظر إلى معجزة نزلت أمامه من السماء دون سابق إنذار، تبسم في وجهي، وقبل أن يغادر قلت له هامسة: هل تشتهيني إلى هذا الحد؟.. لم يجبني واختفى بسرعة فائقة خلف ظلال فاقعة الصفرة.

هل حلمت أن النهر كان في حالة فيضان غزير.. ومياهه أضحت عكرة ملأت اليابسة أم أن هذه مقدمة فصل النهاية وحلم باذخ قابل للتأويل.. تتداخل المشاهد بعضها ببعض وتمتزج الكلمات بالألوان، عالم الأحلام أصبح أكثر وضوحاً وشفافية من عالم الواقع، عيون ذكية ترصد وتوثق الحدث من مختلف الزوايا ومن أي مكان..

ودعتني مدينة الضباب بطقس غائم وزخات مطر خفيف، أشعر كأني واقفة عند حافة رفيعة تفصل بين عالمين مختلفين.. تتقدم الخطى صوب دروب الصمت باحثة عن ملاذ آمن في عالم السكينة والحقيقة التي لا تقبل جدلاً، حالة أشبه بالنيرفانا..(حالة الخلو من المعاناة حين يصل الإنسان إلى حالة السعادة القصوى ويتخطى كل المؤثرات الخارجية، وتكون بداية النهاية في طريق الخلاص..).

جالسة الآن في مقعد الطائرة قبل أن تقلع.. تركت كل شيء خلف ظهري.. وقدمت إلى المطار بحقيبة يد صغيرة، تذكرت عندما سألني موظف في المطار أين أغراضك قلت له: ليس لي سوى حقيبة اليد هذه... هل حمل الأغراض إجباري لكل راكب؟

رد باستحياء: لا.. وطلب من زميلته الدخول معي إلى الغرفة لتفتيش حقيبة اليد..

لقد جعلهم الإرهاب لا يثقون بأحد (أنت متهم حتى يثبت العكس).. أخرجت موظفة الهجرة التقرير الطبي وبعض الأدوية وأخبرت رئيسها الذي حضر بعد لحظات بوجه خجل - نعتذر منك لهذا الإجراء، ومن حقك تقديم شكوى ضدنا إذا شعرتِ أننا انتهكنا خصوصيتك.

كان هو يتكلم في وادٍ وأنا في وادٍ آخر.. بعيد عن كلماته التي لا تفيدني في شيء الآن..

تتحرك الطائرة بإيقاع سريع تعلو شيئاً فشيئاً وتخترق الغيوم البيضاء في الأفق الواسع.. تنهمر الصور أمامي دفعة واحدة، أسمع هدير الطائرة بوضوح..

معلقة الآن في هذا الفضاء عند رحلة عودتي النهائية إلى أرض الوطن، لم يمهلني المرض هدنة ومساحة كافية من الوقت.. خيوط متوهجة من ضوء الظهيرة تتسرب عبر النافذة الصغيرة.. صوت محرك الطائرة يكسر الصمت المعدني، هل كانت أمسية سرمدية طويلة ملبدة بالغيوم والسحب.. سيل من الصور المتحركة التي تتدفق وتمضي على عجل.. موجة من الهذيان تحوم ببطء في الذهن الشارد.. وبعض الصور الجميلة والمشاهد جالت في خاطري بغزارة.. حنين كثيف يشدني إلى الوطن فهناك نسمة الصباح وعذوبة الفجر وصوت العصافير والأهل وضحكات الأطفال الصغار، وحيث للبيوت هناك أجنحة حنين وعالم من البراءة والنقاء.

هل قلت في الحلم آن لي أن أشد الرحال إليك أيها النيل الخالد، خذني إلى سدرة منتهاك، فأنت بريق قصائدي وفجر رسوماتي.. يتسع المشهد لما بعد الأفق البعيد، وتعاد الصور في الذهن مرة أخرى دون أن تمل الذاكرة البصرية تكرار المشاهد.. هل حلمت بالأمس بزهور يانعة وناصعة الألوان قرب أرض شاسعة وسرب من الطير يحلق فيها.. لمن هذه الشواهد والضرائح؟ لا أذكر هل قلت لطيف تلك العرافة حين سألتني: ما هوايتك؟ فأجبتها: الموت على مهل..

وقبل أن أكمل لها بقية الحديث لمحتها تسابق الريح، فحملت وجعي وشماً على صدري وقلت: يا أيها الغياب، تعال افتح لي صدرك وعانقني بشدة لأنني لم أعد أنتمي إلى هذا العالم.

عندما وصلت إلى الوطن كان أول شيء أفكر فيه هو زيارة النهر الخالد ثم السؤال عن مصير عامر واختفائه الغامض.. هنا في هذه البلاد الجريحة لا شيء أسهل من قراءة الحزن والتعب في وجوه العابرين.. في هذه المدينة يكبر البشر بسرعة مثل الورود.. لكنهم بعد فترة يذبلون ويختفون كالنجوم العابرة في صدر السماء..

لهيب الشمس الحار يتوسد الأفق الشاسع.. الأشعة الذهبية تتسلل من بين أوراق الأشجار.. ذهبت في زيارة لأسرة عامر فوجدتهم في حالة حزن رهيب.. فهم لا يعلمون أي شيء عنه، هل هوعلى قيد الحياة أم أنه متوفى؟

فقدت والدته بصرها من كثرة البكاء عليه.. كم هو مؤلم اختفاء إنسان دون معرفة مصيره.. كانت تصل إلى مسامعهم معلومات متضاربة لدرجة لا يصدقها العقل والخيال.. منها على سبيل المثال أن شخصاً قد التقاه في مدينة سواكن أقصى شرق السودان، قال إنه حاول التحدث مع عامر لكنه لم يجبه كأنه لا يعرفه أو أنه تعرض لفقدان ذاكرة، في حين شخص آخر يقول إنه صادفه في مكان آخر في أقصى الغرب في مدينة نيالا وهي بعيدة كل البعد عن سواكن في الفترة نفسها التي أكد الأول أنه قد التقاه هناك... بينما قال أحد سكان المنطقة إنه شاهده في زاوية لإحدى الطرق الصوفية في مدينة فاس المغربية، وعندما ذهب مرة أخرى إلى المغرب وسأل عنه هناك قالوا له إنه اختفى منذ مدة ولم يظهر لكنهم أكدوا له شيئاً واحداً أنه سوداني الجنسية لكنهم لا يعرفون اسمه لذا أطلقوا عليه اسم الشريف درويش.. هل صار اختفاء عامر مجرد لغز وأصبح منقسماً هنا وهناك.. في كل الأمكنة؟ أم أن هناك شيئاً مفقوداً لم نستطع الإمساك به أو فهمه حتى الآن.. رأي آخر يقول إنه قد يكون تعرض لاعتقال لنشاطه السياسي السابق ونقده الشرس لحالة الفساد التي وصل إليها الوطن، قلت لوالدته ماذا يقول لك حدسك؟ أجابتني بحزن عميق: حدسي يقول إننا لن

نراه بعد الآن على الإطلاق، لقد جاء لمتابعة حالتي الصحية وها هو الآن اختفى ولا أحد يعلم مصيره إلا الله، لم أقوَ أن أقول لها إنّ حدسها في مكانه، فقد جاءني عامر في النوم ذات مرة قبل مجيئي إلى هنا وقال لي: لقد عذبوني مدة أسبوع كامل حتى فارقت روحي الحياة، لم أسأله من هم الذين عذبوه وأجزم أنني أعرفهم حق المعرفة فالموتى لا يكذبون..

سأحدثك يا صديقة عن تداعيات فصل الغياب وأحكي لك طقوس التيه والعذاب، لطالما شعرت بنفسي تائهة في مدينة غريبة فاقدة للذاكرة والحياة.. لم أعد أعرف حتى اسمي وتهت في دوامة طويلة، وظللت أبحث عن شيء غامض لا أعرف حتى ماهيته..

الآخرون، أي الظلمة جعلوا هذه الأرض أكثر ضيقاً رغم اتساعها.. والحياة أكثر بؤساً رغم الأمل البهيج الذي كنا نحلم به، بدت نبرة صوت عامرغريبة غير مألوفة.. كأنها لشخص آخر مليء جوفه بطعم الظلم.. هل الحزن يغير حتى أصواتنا؟

طباعك لاتزال كما هي يا صديق لم تتغير من الواقع ولا في الحلم ولا في أتون الغياب..

كم كنا نحتاج من الوقت حتى نرمم أنفسنا، من تلك الخيبات المتلاحقة التي كانت كافية لكسر إرادة حصان سباق، لا يشق له غبار يراهن عليه كل الحالمين بحلاوة الفوز..

أذكر عندما أفقت من نومي منزعجة من ذلك الحلم قلت بصوت عالٍ: تباً لك أيتها العرافة فقد صدق قولك..

من هنا أكاد أشم رائحة النهر وأسمع صوت أمواجه وأناجيه في سري.. تتداخل الأزمنة والأمكنة ببضها ببعض ولا أدري أين أنا هنا أم هناك..

قبل أن يغيب قرص الشمس، كنت جالسة وحدي عند حافة النهر.. كانت أمواجه تتهادى بإيقاع منسجم، ونسماته العطرة تدخل شغاف الروح وتضمخ المكان بنكهة مميزة، وتنفتح ثقوب الذاكرة على مصراعيها..

هل أصبحت تائهة في فصول اللامكان وهائمة في أزقة الضياع ومسجونة بين جدران التيه والغياب.. كيف انطفأت سنين العمر بهذه السرعة.. لكأني لم أكن في هذه الحياة سوى سنوات قليلة فقط، الآن أسير وحيدة في صمت بالغ خلف حشود من الحنين والذكريات.. الصمت هو بداية الطريق للدخول إلى عالم السكينة السرمدي، هل بدت الأشياء تتلاشى من ذاكرتي شيئاً فشيئاً تبتعد وتتبدل في لحظات، عندما عادت شقيقتي كنت لا أزال جالسة في حضرة النهر أتمعن في فصل غيابي المقبل وأحلام يقظتي المرئية..

كانت الأحلام والمشاهد مندفعة بشدة مثل الفيضان الثائر.. الوجع يرسل إشاراته خلسة إلى يدي اليمنى التي أشعر بها تؤلمني ولا أقدر على الكتابة أوالرسم لعدة أيام، هل عندما تموت يد الفنان تنتحر الحياة وتصبح أشد قتامة وبلا فائدة تذكر.. الغياب ليس نهاية كل شيء بل هو بداية كل شيء..

أبصر كل شيء بوضوح في حياتي السابقة، لحظات عصية على الإدراك والفهم، الغياب يمد أذرعه الطويلة ويكاد يحتضن جسدي النحيل بشدة ويضمني إليه.. هل أصبحت ضيفة ثقيلة على هذه الحياة لدرجة أن وجه الغياب يذكرني بوجوده عند كل ثانية.. كم يصعب وصف هذه اللحظات التي لا يستطيع القلم أن يدونها ولا الريشة أن ترسمها ولا اللسان أن يتفوه بها..

قلت لشقيقتي أماني ذكريني عندما أعود إلى البيت بأن أعطيك ظرفاً فيه مخطوطات تخص عامراً، أرجو أن تعطيه إياها عندما يظهر.. وإذا لم يحدث ذلك رجاء سلميها إلى أسرته واقترحي عليهم أن ينشروا أعماله لأنها تستحق النشر، وضعت مبلغاً من المال في حسابك يمكنك التصرف به بحسب الوصية المكتوبة، وأهم شيء هو طبع أعمال عامر إذا وافقت أسرته على النشر، أما الظرف الآخر فرجاء تسليمه إلى ماريكا..

في صبيحة اليوم التالي وجدت نفسي دون سابق إنذار في المستشفى.. عندما أفقت سألت شقيقتي ماذا حدث؟ قالت لي محاولة إخفاء حزن عميق يبدو من ملامح وجهها ومن نبرات صوتها.. لا تقلقي كنتِ متعبة وجئنا بك إلى هنا.. تذكري أنك لم ترتاحي منذ لحظات وصولك قبل ثلاثة أيام.. قلت لنفسي: لقد ولى عهد الراحة ولم يتبق الكثير من الوقت.. تذكرت كلمات الطبيب بمدينة لندن عندما صارحني: قد تدخلين في غيبوبة فترة من الوقت وبعدها.. لم يستطع أن يكملها ولرفع الحرج عنه أكملت له ما لم يستطع قوله.. ثم واصل حديثه أن الفرضية الأخرى أن تمضي دون غيبوبة.. همست في سري: ليس هناك أي خيار ثالث إلا أن تنزل معجزة من السماء، وللأسف انتهى زمن المعجزات ونعيش الآن زمن الخيبات والنهايات الكبرى.

الآن أرى بكل وضوح تفاصيل حياتي السابقة دفعة واحدة في مشهد لم يستغرق سوى ثوان معدودة، منذ متى لم أتكلم؟ هل اختفى الصوت بين ردهات البياض الشاسع؟

الحزن الذي يسكنني الآن ويغلف روحي لا يزول إلا بمعجزة سماوية.. أسير بخطى واثقة نحو ضفة النهر الخالد يرافقني ضوء باهر يبدو مثل ظلي، اجتاحتني أحاسيس ومشاعر متضاربة يصعب وصفها..

كنت محتاجة أن أروي عطش عيني من جمال مشهد النهر، أسمع بوضوح تلاطم أمواجه الحالمة، النوارس تردد بخشوع ابتهالات الفجر الأولى، شبح الغياب يردد: لا نجاة من الرحيل إلا الرحيل.. روح متعبة تهمس لنفسها: أيها الغياب لقد مللنا الحضور وضيق الانتظار.. من فينا يشتهي الآخر الآن؟

رائحة بخور الند والعود تمنحني شعوراً منعشاً يملأني بالانتشاء ويغمرني بالدفء.. رائحة الياسمين العطرة تسطع في المكان وتعبق في ضفاف الروح..

كاليستا حاضرة بكل أريحيتها وابتسامتها المشرقة التي لا تفارقها.. من علمك سر المحبة يا صديقة.. رائحة قهوة ممزوجة بنكهة الهيل والزنجبيل، جوقة من الأصوات الكثيفة تطوف في أرصفة الذاكرة وتسبح في أروقة الخيال الرحب..

إيقاع طبل وأصوات تتردد من البعيد تهتف بالحي القيوم والواحد الأحد، راية خضراء عالية تحوم وتحلق في الفراغ.. أطياف من الدراويش يرتدون ملابس خضراء قاتمة، قلوبهم مسكونة بالحب والجمال ومستغرقة في حالة وجد صوفي عميق، تلك الأناشيد التي كنت أسمعها في مرحلة الطفولة لا تزال راسخة في ذاكرتي.. خُضرة متوهِجة ساطعة تملاء المكان.. تذكرت الموقف الذي حكاه لي مهران، عن ذلك الشخص الدرويش الذي قفز في الهواء بعلو بلغ قرابة ثلاثة أمتار من الأرض.. في إحدى الحوليات الصوفية وهو يصيح ويتمتم بكلمات غير مفهومة، كيف فاتني أن أعبر عن ذلك المشهد في لوحة فنية أو قصيدة؟ هل منعني الألم في ذلك الوقت من رسم ذلك المشهد العجيب في لوحة فنية؟..لقد رأيت ذلك الشخص في الحلم عدة مرات.. أصوات كثيفة تملأ روحي

في هذا الفراغ وتتردد في ذاكرتي الآن.. زقزقة العصافير وهي ترفرف فوق أغصان الأشجار الكثيفة.. أيتها الطبيعة، أنت أكبر محرض للإلهام والإبداع والجنون.. عزف عذب لشقيقتي الصغرى على آلة الكلارنيت، صوت كمان ساحر يطرب النفس ويحلق بها في السماوات البعيدة.. هذه أنت يا ماريكا ما أجملك يا صديقة!

صوت عامر وهو يقرأ مقاطع من أحد نصوصه المسرحية (ليس على الأوطان حرج.. ما دامت تسع كل ألوان الطيف).. صوت أيقونة الشرق فيروز قادم من بين جنبات الحلم وهي محلقة في حضرة ليالي الشمال الحزينة تردد بصوتها الساحر (أنا عصفورة الساحات... أهلي نذروني للشمس وللطرقات).

صوتك يا فيروز هو الحنين، الأمل، الحلم، البراءة، البساطة، العبقرية والجنون..

صوت محمد منير يصدح بعذوبة بعد حوار مسكون بالحنين بين آلة القانون والناي والعود:

(بننجرح كل يوم لكن.. بيفرحنا، إن إنت جُوا القلب ساكن.. في أفراحنا).

همست له: أنت يا منير كل البهجة والفرح والجنون و(الأمل في العيون)، محمود درويش يردد بصوته الساحر والجهوري (أنت منذ الآن غيرك)، (يا أيّها الذاهبون إلى حبّة القمح في مهدها.. احرثوا جسدي) صدى صوتي يردد من الأعماق السحيقة: أنا هنا وأنا هناك يا ادوارد سعيد (خارج المكان) والزمان.. صوت جدتي وهي تقول:

(الموت حق والحياة باطلة)، صوت الشيخ عبد الباسط عبدالصمد وهو يتلو بخشوع بالغ (فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد).. أحدق إلى سقف الغرفة الأبيض مرة ثانية وثالثة .. قلت لنفسي التائهة في البعيد ليس لك إلا هذا البياض الناصع.. النهر يسير ببطء وينساب بتثاقل وتكاسل فريد من نوعه، صوت هدير المياه يعلو ويهبط بإيقاع فوضوي ومضطرب وأمواجه العاتية تكاد تنتحب، أشجار النخيل العالية تهتز بشدة حتى تكاد تفارق الجذور وتحلق بعلو مرتفع صوب الأفق وتتراقص على إيقاع صفير الريح..

هل نسيت أن أشكر ظلال النخيل لحمايتها لنا من وهج شمس أيلول الساخنة.. إليك اعتراف متأخر أيتها الظلال بأننا كنا نعشقك حتى الوجع... إيقاعات حزينة تسمع من البعيد تأتي وتختفي إلى أن تتلاشى شيئاً فشيئاً، تتداخل مع أصوات تتردد ثم تتكسر مثل شظايا البلّور المتناثر على الأرض، هنا بعض قصائدي معلقة في جدران كبيرة، وأخرى تتراقص هناك في الهواء الطلق تحلق كالفراشات الصغيرة الملونة في فصل الربيع..

أرى لوحاتي معلقة في معرض في الهواء الطلق أكاد أعرفها بأسمائها:

تعويذة النهر، مرايا الروح، ظلال الموج، رقصة الريح، ترنيمة الفجر، النوارس البيضاء، فتاة من كشمير، نافذة الأفق، شرفة الغياب، الجدران الصامتة، آلام العاشق، إيقاع الموشكا (خلاص الروح)، قيثارة النيل، أحلام النخيل، الرحلة النهائية، عصافير الربيع، أنشودة النهر، أسطورة النيل..

تلاشت شمس المغيب من أفق السماء الزرقاء، وتحول النهر إلى كتلة من الصمت، نوارس بيضاء تحوم وتحلق في الفضاء العاري فاردة أجنحتها للريح، أستنشق نسمات رائحة أزهار وأنصت إلى هسيس الأشجار وترانيم الفجر الأولى..

منذ متى وأنا في هذه الحالة بالمستشفى؟ هل يهمني أن أعرف.. يوم، أسبوع، شهرأم عام؟ تبدو النهاية قادمة بإيقاع متسارع... يقين راسخ وبريق باهر يشع من عيون المرضى في المستشفى...

عندما أطل وجه الغياب من قربٍ لوح لي بنظرة صفراء، فهل قلت له لماذا تأخرت كل هذه السنوات.. فأنا أنتظرك قبل أن أولد وأشتهيك كما تشتهي الطيور الصغيرة دفء أوكارها، وكما يشتهي النهر وقت المغيب.. قيل في قديم الزمان: في البدء كانت الكلمة، أما الآن لم يعد للكلمة أية معنى أو فائدة..

تراءت لي أطياف وجوه عديدة أعرف الكثير منها، والبقية منها سقطت من الذاكرة المعطوبة في بئر النسيان السحيقة..

ها أنت يا أمي بكامل حضرتك البهية تقفين أمامي.. دوماً تأتين في الوقت المناسب.. كل ما أحتاج إليه في هذه اللحظة هو أن أستلقي في حضنك الدافئ.. وأتغلغل في خضم رائحة أنفاسك المملوءة بالحب والحنين والألفة؛ إن رائحتك هي أول رائحة عرفتها في هذه الحياة.

وها أنذا أودع هذه الحياة بنفس رائحة هذا الوجود، وشتان بين لهفة الحضور ومتاهة الغياب..

ليتني أستطيع أن أقول لك بعض الكلمات يا أمي.. لكن صوتي اختفى منذ وقت بعيد في دهاليز العدم، وتبخر مثلما تتبخر الغيوم في صدر السماء، أشتاق أن أعود طفلة صغيرة تختبئ في حضنك الدافئ، وتسبح في فيض حنانك وحبك.. لكن عقارب الوقت لا تمضي إلى الوراء، تبعد المسافات وتتلاشى.. تغيب ملامح أمي ولم أعد أستطيع سماع صوتها.. أشاهد صورة أبي هناك ساجداً على سجادة صلاته يقرأ ما تيسر من الذكر الحكيم بصوت خشوع.. ما أقسى مشاهد الحزن في عيون الأحبة.. وما أقسى الدموع في عيون الرجال..

هناك عند ضفاف الروح البعيدة تهت في دوامة التيه وسادت لغة الصمت السرمدي، طغت الأصوات الداخلية غير المسموعة التي تحرر الروح شيئاً فشيئاً من هذا العالم، طيف أمي لايزال حاضراً في ذهني بكثافة لم يفارقني البتة..

تتدافع الأقدار المسطرة صوب نهايتها الحتمية، تأخذني أصوات إيقاع خافتة وموسيقى حالمة إلى عوالم الضفة الأخرى حيث الحقيقة الأزلية التي لا تقبل الشك أو التأويل..

أشعر بأن جسدي يطير ويحلق بعلو شاهق نحو عنان السماء، تحيط بي غيوم بيضاء شفافة من كل الجهات، صوت الريح يغني بطرب وشدو في أذن الفراغ، أحلق بإيقاع متناغم في خضم صدر الأفق الشاسع والفضاء الفسيح، خذيني أيتها الغيوم صوب الأعالي وأمتعيني أيتها الريح الحالمة بشدوك الجميل، أصبحت أنا والغياب الآن وجهاً لوجه ليس بيننا سوى مليمترات معدودة من الصمت الأزلي.. أيها الغياب افتح لي صدرك ودعني أعانقك هنا في هذا الفراغ الفسيح على خطى إيقاع العودة عند تخوم الغيم الحالم ورذاذ المطر وضوء شمس المغيب المرتحلة.. ومن ثم أحتضنك بعدها بقوة وأغيب فيك.. ضوء باهر وناعم يعم أرجاء هذا المشهد الذي يتسع ثم يمتد ويمتد إلى ما لا نهاية.. نور أبيض ساطع يملأ روحي ويغمرني بسعادة سرمدية وحالة من الإشراق والسكون تتسرب داخل روحي.. أحلق بعلو شاهق صوب السماوات البعيدة.. ذاكرتي خالية من كل شيء يحيط بها الآن الغياب من كل مكان، سأنطفئ الآن وأغيب لكن.. سأولد من جديد، فكل موت ولادة وكل ولادة موت، سأكون غيمة بنفسجية تسبح في عالم اللون، وعصفورة هائمة تغرد فوق أغصان

النخيل، وحمامة صغيرة لا تملك سوى ضميرها المرهف، وفراشة زرقاء أدمنت روحها رحيق الورد وعبير الزهر وظلال الورود الحالمة..

****

عندما لمحت النتيجة المعلقة على الجدار كان اليوم يصادف عيد ميلادك.. هل هي مصادفة محضة أم أنه القدر المسطر والمكتوب قبل أن نولد.. كانت رقيقة مثل نكهة الفجر الأولى في فصل الربيع.. نظرت إليّ بابتسامة عذبة وانبثقت هالة نورانية كست ملامح وجهك الطفولي المشرق الذي يشع بسعادة اليقين.. غابت عيناها على مهل في صمت وسكينة تامة، ظلال صفراء غيمت على أرجاء المكان..

رحلت بهدوء تام كما ترحل شمس المغيب صوب الأفق البعيد.. فاضت روحها وطارت محلقة نحو السماء الزرقاء.. نبرات صوتك ستظل حاضرة تتردد في أذني.. هل الصوت لا يموت حتى بعد رحيل صاحبه.. ملأت أنفي برائحة أنفاسك وقبلت جبينك وضممتك إلى صدري بشدة، وبكيت بحرقة وشعرت بأن كل شيء في هذه الحياة فقد معناه، لقد تحطم قلبي برحيلك يا شقيقتي.. سيشكل غيابك مبعث حزن عميق وجرحاً غائراً في الدواخل يصعب أن أتكيف معه طوال حياتي.. لن أنساك ما دام النهر يجري والسماء تمطر وألوان ريشتك المشرقة حاضرة تمتع بصرنا، وفيض كلماتك العذبة ستظل باقية فينا حتى آخر الدهر.

بعد قرابة عام من تداعيات الرحيل.. تلقيت رسالة من ماريكا صديقة شقيقتي الراحلة.. استلمت الرسالة عبر صديقتها التي تعمل في المركز الثقافي البريطاني بالخرطوم.. وكانت قد أخبرتني فيها بقدومها إلى السودان مع الفرقة الموسيقية للمشاركة في مهرجان النيل للموسيقى، أنها تود أن تلتقينا، وأعطتني عنوان الفندق الذي ستقيم فيه بالخرطوم...

حضرت بالفعل بعد أسبوع وزارتنا في البيت.. وطلبت مني أن نزور قبر هاجر، وبالفعل ذهبنا.. كانت لحظات مؤثرة بشدة.. هكذا يرحل الأحباء ونظل نعيش حياتنا الباقية على صدى ذكراهم النبيلة بيننا.. تمعنت ماريكا بتأمل في النص المكتوب على شاهد الضريح الرخامي.. لمحت مراسم حزن يبدو على وجهها.. ترجمت لها الكلمات المكتوبة على شاهد القبر والمستوحاة من أثر الشاعر ناظم حكمت:

«أجمل الأيام هي التي لم أعشها..

أجمل اللوحات هي التي لم أرسمها..

أجمل القصائد هي التي لم أكتبها..».

قدمت لي دعوة لحضور المهرجان.. كنت قد أعطيتها أمانة كانت تركتها الراحلة وطلبت تسليمها إلى ماريكا.. تأثرت بالمحتويات التي كانت داخل المظروف.. ذهبت في المساء إلى المسرح القومي لحضور تلك الأمسية من فعاليات المهرجان الموسيقي التي لن تغيب عن ذاكرتي أبد الدهر.. أذكر أن ماريكا قالت في ذلك اليوم أمام الجمهور العريض كلمات مؤثرة وبليغة:

« يسعدنا أن نكون بينكم هنا ولأول مرة في هذا البلد المضياف.. وعلى خشبة هذا المسرح المطل على ضفاف النيل الخالد، سبب حضورنا هو من أجل التواصل الإنساني بين الثقافات والشعوب.. والموسيقى هي أفضل وسيلة لذلك التواصل الذي ننشد من خلاله السلام والمحبة والعدالة.. ونبذ

ظاهرة العنف والكراهية والحروب التي تزهق كل يوم أرواح آلاف الأبرياء بلاذنب.. وأحد أسباب مشاركتنا أيضاً هو تكريم ذكرى الشاعرة والفنانة التشكيلية السودانية هاجر ساتي.. التي كانت من أعز الأصدقاء بالنسبة إليّ.. جمعت بيننا العديد من الذكريات والأفكار المشتركة مثل عشق الموسيقى والفن والأدب.. وجمعتنا أخوة الإنسانية فكانت خير صديقة لنا في المهجر باعتبار أن كلتينا وافدتان من دول مختلفة.. كنا نتواصل بلغتين: الإنجليزية والبولندية ،علمتني مبادئ اللغة العربية وعلمتها العزف على الكمان، وكان لديها استعداد ومقدرة مذهلة ورغبة أكيدة في التعلم.. أما ثقافتها الموسيقية فكانت عميقة بمعنى الكلمة.. كنت أقول لها في كثير من الأحيان: لقد أخذك الرسم والشعر من عالم الموسيقى..

كان في داخلها روح فنانة شفافة ومرهفة إلى أبعد الحدود.. تهوى اللون وتعشق الكلمة وتعتبر الفن عالمها الأول والأخير.. كانت من القلة الذين يدركون قيمة الفن والجمال في هذه الحياة.. سخرت ريشتها وشعرها بل حياتها لعشق نهر النيل والحضارة النوبية القديمة.. كان شأنها شأن الفنانين الكبار تعيش حالة اغتراب تام عن هذا العالم.. وانعكس أثر هذا الاغتراب الروحي والميتافيزيقي على أعمالها الفنية والشعرية.. وتلتقي مع هيجل في مقولته: «أن يتنازل الفرد عن ذاته لمصلحة المجتمع هو السبيل الأنجع لتخطي واقع الاغتراب». واجهت نهايتها وحيدة بصلابة مدهشة دون أن تشعرنا بألمها ومعاناتها الرهيبة.. آثرت ألا تخبرنا حتى لا تؤلمنا بمتابعة رحلة مرضها الطويل والمؤلم.. ثم جاء الموت وخطفها بغتة دون سابق إنذار.. رحلت قبل أن نودعها ونعبر لها عن مدى تقديرنا وإعجابنا العميق بتجربتها الإبداعية المتفردة.. تركت لي رسالة بعد رحيلها أعتبرها من أجمل الرسائل التي قرأتها في حياتي.. هكذا الحياة يا أصدقاء لا تسير دوماً كما نشتهي.. حزن وفرح وحياة وموت.. الأعمال التي سنقدمها لكم بعد قليل مستوحاة من رسوماتها وقصائدها متمنين أن تنال رضاكم وذوقكم الرفيع.. ستكون لوحاتها معروضة عبر هذه الشاشة الكبيرة.. نشكر من هنا صديقتها التشكيلية العراقية سناء قاسم التي قامت بإخراج هذا العمل.. وكان يُفترض أن تحضر معنا لكنها ذهبت إلى كندا للمشاركة في معرض خاص بالراحلة هاجر وهي من رشحتها لتنوب عنها.. نهدي هذه الأعمال إلى روح الراحلة الحاضِرة بيننا الآن.. وإلى شقيقتها الكبرى الموجودة معنا الآن أماني ساتي وإلى كل أفراد أسرتها الكريمة.. وإلى الصديق الغائب الحاضر عامر حسين حتى يعود وله التحية أينما كان، ونتمنى من الجهة التي اعتقلته أن تملك الشجاعة الكافية وتعلن مكانه.. لكم كل الود والمحبة مع تمنياتنا لكم بأمسية سعيدة ملؤها السلام والحب والتسامح..».

إضاءة خافتة عمت خشبة المسرح.. بدأت الفرقة العزف على الآلات الموسيقية.. ينصت الجمهور بصمت تام للمقطوعة الموسيقية.. حلقت على رؤوسهم أحرف وأشكال ملونة بألوان قوس قزح ثم حطت على أكتافهم كطيور سرمدية متعددة الأشكال والألوان، مُشِعة بمديات محبة لم يعرفها أحد منهم مسبقاً..



سيطر عليّ إحساس غريب لم أعرف ماهيته، كثير من الوجع يلازمني، وقليل من الملل يحاصرني، وعيناي مسكونتان بالتعب، أشعر بخدر كثيف يتسرب داخل جسدي، سرحت مع أزيز الطائرات المسائية، همست في أذن الليل قائلة: «تعال يا ليل خليك معايا عايز أشكي ليك سُهدي وأسايا».. وجدت نفسي تائهة في عالم من الفراغ لم يخلصني من تلك الحالة سوى النوم الذي كنت بالفعل في أمسّ الحاجة إليه..

عوض عثمان عوض ..

- **من مواليد مدينة أم درمان - السودان عام 1972.**
- **خريج جامعة النيلين - كلية القانون عام 1995.**
- **أقام مدة تسع سنوات في هولندا، ويقيم حالياً في بريطانيا.**
- **له العديد من المقالات والمساهمات الأدبية والقصص القصيرة والخواطر، نشرت في عدة مواقع بشبكة الإنترنت وفي مجلة الحوادث اللبنانية وجريدة القدس العربي الصادرة في لندن.**

صدر له:

- باب السنط، بالاشتراك مع الإخوة جبريل، دار النخبة للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، 2008.
- حوار الظلال (قصص قصيرة جداً) دار ميريت للطباعة والنشر، القاهرة، 2010.


ISBN 978-614-432-031-0
9 786144 320310